

العدد: 90
الخميس 07 نوفمبر 2019
48 صفحة
نشرة اسبوعية خاصة من بوابة إفريقيا الإخبارية

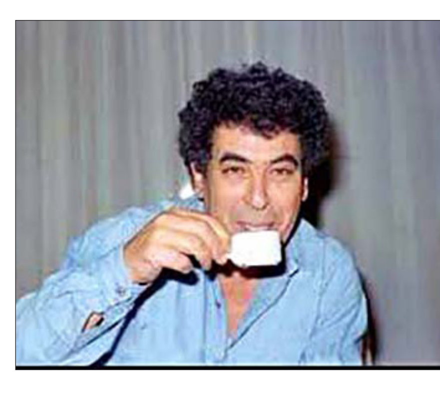
الصادق النيهوم...

مجدد واجه بالعقل «إسلام الفقهاء»

النيهوم... تنويريٌ ضيّعه العرب

Grajoum

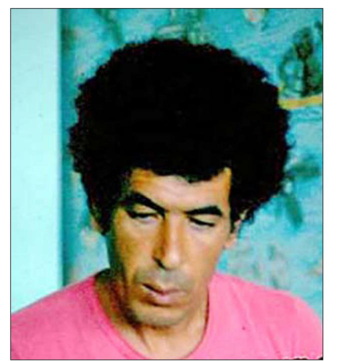
الاشراف: محمد بالطيب ـ الاخراج: عبد الحميد الدبار



الافتتاحية..

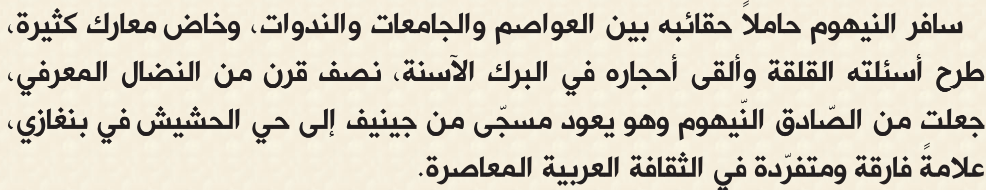


احتفاء بالصّادق النيهوم

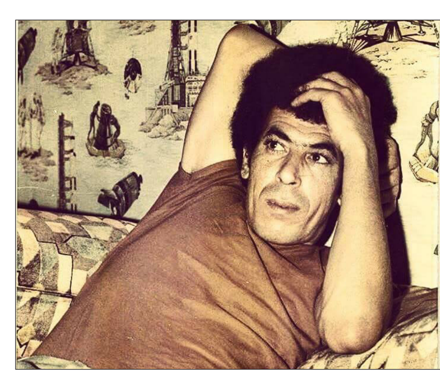


بشعر مُجعّد، وسحنة من القلق الدّائم غائمة فوق وجه مترهّل ونحيف، يكتبُ الصادق النيهومٍ ويتكلّم بشغف الأسئلة الحارقة، يعبر سائرًا بجسده الهزيل في رحلة طويلة بين الدّروب الوعرة، يهزّ الشّجر اليابس لتتساقطَ الأوراق في زمن عربيّ فصوله الأربعة خريفٌ أصفر. يمشي النيهوم نافثًا دخّان سجائره الثّقيلة، راشقًا سهام الشّك في اليقينيات الراكدة، موقدًا حرائقهُ في مضارب السّلطة والفقهاء والموروث الذي تلبّس بالمقدّس .

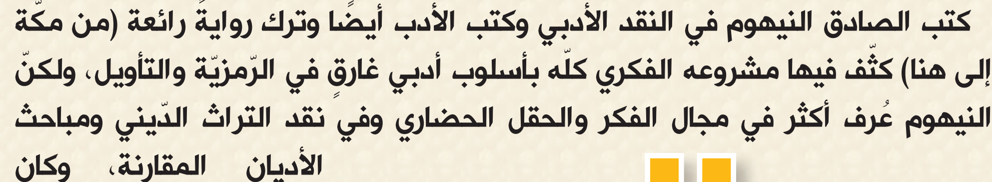
عاش الصّادق النيهوم 57 عاما، ترك فيها عشرات الكتب والدراسات والأعمال النقدية والأدبية والترجمات والموسوعات العلمية، فمن حي الحشيش في بنغازي الرابضة على السواحل البيضاء للبحر المتوسّط، شرقيّ ليبيا، حيث ولد في العام 1937، مرورا بالقاهرة وميونيخ وأريزونا وهلنسكي وصولا إلى جينيف التي هزمه فيها المرض بأحد مصّحتها الباردة عام 1994، كانت مسيرة النيهوم العلمية والتعليمية والمعرفية شاقة ومرهقة وطويلة.



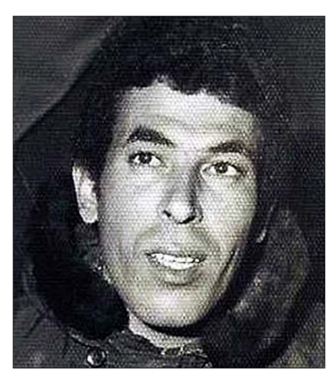
سافر النيهوم حاملاً حقائبه بين العواصم والجامعات والندوات، وخاض معارك كثيرة، طرح أسئلته القلقة وألقى أحجاره في البرك الآسنة، نصف قرن من النضال المعرفي، جعلت من الصّادق النّيهوم وهو يعود مسجّى من جينيف إلى حي الحشيش في بنغازي، علامةً فارقة ومتفرّدة في الثّقافة العربية المعاصرة.



** النيهوم ..مشروع الزعزعة العنيفة للمسلمات:



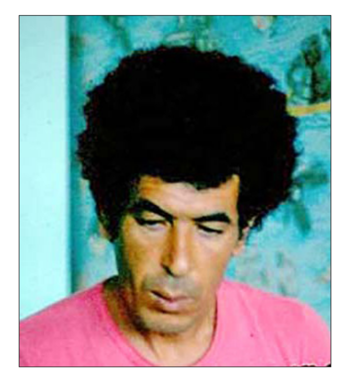
كتب الصادق النيهوم في النقد الأدبي وكتب الأدب أيضًا وترك روايةً رائعة (من مكّة إلى هنا) كثّف فيها مشروعه الفكري كلّه بأسلوب أدبي غارق في الرّمزيّة والتّأويل، ولكنّ النيهوم عُرف أكثر في مجال الفكر والحقل الحضاري وفي نقد التراث الدّيني ومباحث الأديان المقارنة، وكان من الأوائل الذين اغتنوا بمناهج التحليل الحديثة في الغرب ليطبقوها على التراث العربي الإسلامي، مسنودًا بإطلاّع كبير على اللغات الحية وعدد من اللغات الميتة، التي تعتبر أدوات ضروريّة لفهم النّصوص وتفكيكها في حقل الأديان المقارنة.

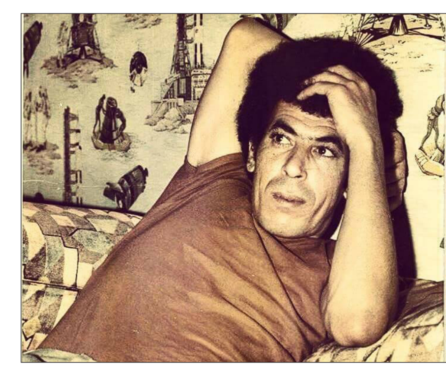


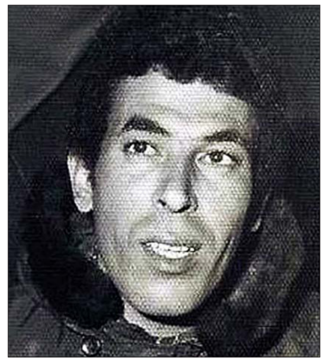
> سافر النيهوم حاملاً حقائبه بين العواصم والجامعات والندوات، وخاض معارك كثيرة، طرح أسئلته القلقة وألقى أحجاره في البرك الآسنة، نصف قرن من النضال المعرفي، جعلت من الصـّادق النـّيهوم وهو يعود مسجـّى من جينيف إلى حي الحشيش في بنغازي، علامةً فارقة ومتفرـّدة في الثقافة العربية المعاصرة.













ربّما يستحيل، الحديث عن مشروع الصّادق النّيهوم في كلّيته في ملف واحد، لكن باختصار شديد يُمكن القول أنّه لم يكن يخفي أبدًا معركته القويّة والقاسية ضدّ «الفقهاء» أوما يسمّيه تحديدا «إسلام الفقهاء» وضد التخلف والأمية والاضطهاد الاجتماعي والسياسي.

يُمكن القول أن الجزء الأهم من مشروع الصّادق النّيهوم يتلّخص في كونه يسعى إلى «تحرير» الإسلام من سلطة الفقهاء، هذه السّلطة التي اكتسبها الفقيه عبر قرون طويلة ومتراكمة، حوّلت نصوصهم وأفكارهم (هُم) إلى مقدّس بعينه متماه مع الدّين نفسه ونصوصه المقدّسة. ولم يكن النيهوم يتردّد أبدًا في إعلان أكثر المواقف صِداميّة ضدّ الفكر السّائد، ولا خلخلة أركان هذا «المُقدّس الفقهي» بأشدّ الخلاصات فتكًا بقواعده الأساسيّة. بالتأكيد يحتاج كلّ هذا إلى تفسير وتوضيح، ويحتاج أيضًا إلى براهين، لكننا سنوضّح هنا في هذا الملف الخاص بعضًا من أفكار النّيهوم التي قد تبدو الأكثر إحالة إلى هذا المشروع الفكري.. مشروع الزعزعة العنيفة للمسلمات.

** قريبا النيهوم في مشروع كتاب من إصدار «بوابة إفريقيا الإخبارية»:

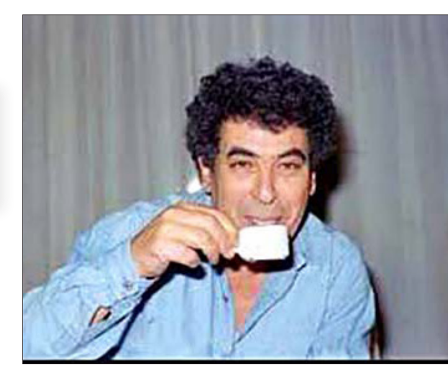


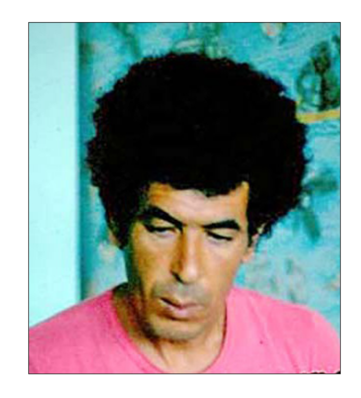
ربّما يستحيل، الحديث عن مشروع الصّادق النّيهوم في كلّيته في ملف واحد، لكن باختصار شديد يُمكن القول أنّه لم يكن يخفي أبدًا معركته القويّة والقاسية ضدّ «الفقهاء» أوما يسمّيه تحديدا «إسلام الفقهاء» وضد التخلف والأمية والاضطهاد الاجتماعي والسياسي.

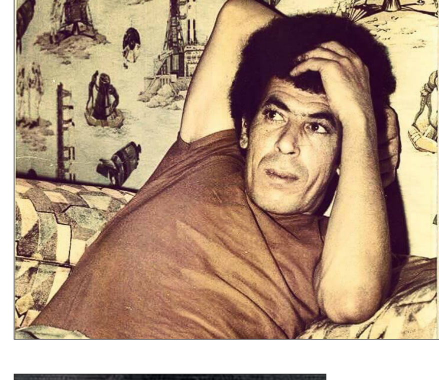
في هذا الملف حاولنا عرض بعض أفكار النيهوم التي ربّما قد تضئ جزءًا من مشروعه الفكري والنقدي، الشّجاع والصّدامي، ضد الموروث والتراث وسلطة الفقهاء وضد المؤسسات الاجتماعية والسلطوية المتهالكة التي حطّمت كل مشروع نهضوي/ حضاريٍّ ممكن للعرب، وأبّدت حالة الرّكود التي جعلت العرب يتذيّلون بقيّة الأمم والحضارات.

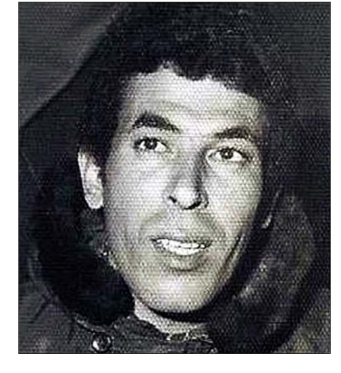
النيهوم كتب كثيرا عن هذه الأمّة وتخلّفها، وعن المرأة وعن السّلطة السياسيّة، رغم أنه كان مقربًا منها، وكتب عن الدّيمقراطية وسلطة العقل وعن الجامع وعن الناس وهمومهم، كتب عن الشّعراء، وكتب إليهم، وكتب المقالات والدراسات النقديّة وفي الفكر السياسي والاجتماعي وحتى الاقتصادي، ولكنّ أعتقدُ أنّ ريادة الصادق النيهوم كانت تتحقّق في شيئين، الأدبُ (كروائي رهيب!) ونقد التراث الدّيني، وفي الثاني كان له السبق عن كل الذين جاؤوا بعده، وكلهم كانوا عيالاً عليه.. فقط إنّ مشروع الصادق النيهوم عصيٌّ عن الاختزال. وقريبًا سيصدر -الأرجح مع بداية العام القادم- كتاب كامل حول الصّادق النيهوم عن مؤسسة «بوابة إفريقيا الإخبارية»، بمساهمة أكاديميين وكتاب وصحافيين من مختلف الأقطار العربية. في الأثناء -وقبل ذلك وبعده-.. رحم الله الصادق النيهوم.

مجلّة «المرصد»











في نقدِ الصادق النيهوم..

تنـويـريٌّ أم محـافـظ؟



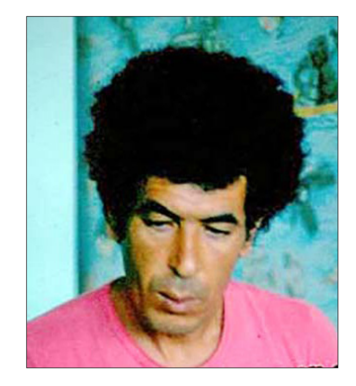
ضو الصغير

لاشك في حجم الارتباك والحيرة التي تنتاب كل متمعن في أفكار وطروحات المفكر الليبي الصادق النيهوم. ومردها صعوبة موضعة هذا المفكر غير المشكوك في تجديده وجديته وسعة تبحره واطلاعه وسفره الطويل في متون الكتب والمدونات واللغات المتصلة بعلوم الأديان وفي مقدمتها الإسلاميات.



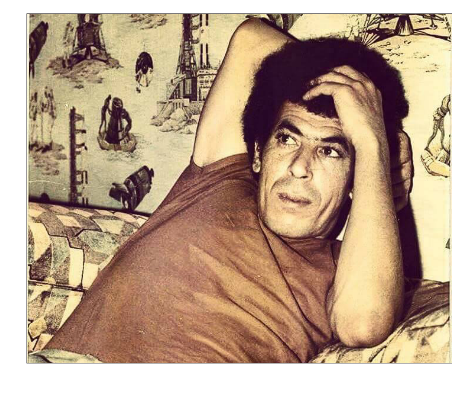
فلا تدري إن كنت في مواجهة مجدد حقيقي للدراسة الإسلامية وتطوير المنهج والتصور المجتمعيين باتجاه بلورة رؤية جديدة للوقائع والمستقبل تقطع مع السائد المتحجر المنحط أو أنك أمام مجرد أصولوي لا يستهدف سوى تزويق القديم وإحيائه دون أي مساس أو زحزحة للأصول وما استقر في الذهنية الإسلامية على أنه ثوابت لا تقبل المساءلة أو المساس.

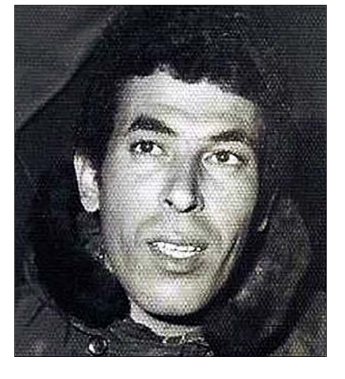
أو بمعنى أدق لنا أن نتساءل هل نحن إزاء مجرد مصلح تقليدي على شاكلة محمد الغزالي يعيد إنتاج شخصية «الشيخ» أو بصدد مفكر مقلب لطبقات التراث العميقة ومفكك لأصولها المعرفية وأدوات إنتاجها للمعنى والخطاب المحجوبة على شاكلة محمد أركون. إجابة أولى عن هذا السؤال نرى بوضوح أن النيهوم يقع في الضفة الثانية تكوينا، حيث تبحر في فقه اللغة المقارن وتتلمذ على أيدي كبار البحاثة الغربيين ونهل من مناهج البحث الحديث ولغاته. بل إنه امتهن تدريسها في جامعات الغرب الحديثة. لكنه، خطابا، يقع في الضفة الأولى، حيث تمتلئ كتاباته بالمواعظ ولغة الدعوى والترغيب الوعظي، وتهيمن اللغة والمصطلحات التراثية الكلاسيكية على مصنفاته.



فالنيهوم، مثلا، يلح في كتابه «إسلام ضد الإسلام» على اعتبار الشورى النظام الصحيح في الإسلام معتبرا إياها فرض عين على كل مسلم وهي النظام الصحيح الذي لا بد من توخيه في المجتمع المسلم داخل مختلف قطاعات الدولة والإدارة. ويؤكد في مرات عدة على مخاطبة الإسلام للمواطنين، وهو مصطلح عرفته الديمقراطيات المعاصرة، في حين أن القرآن يخاطب المؤمنين. وواضح جدا أن المصطلحين ليسا مترادفين. ويؤكد النيهوم استنتاجاته الإطلاقية النهائية في شكل تأكيد دغمائي جازم مستشهدا بآيات قرآنية دون عميق حدك أو تنسيب يفترضهما البحث العلمي العميق. بل إنه لا يتردد في اعتبار ما يطرحه الإسلام الصحيح أو الفهم الصحيح للإسلام المؤسس على الشورى الملزمة للمسلمين باعتبارها فرض عين عليهم يمارسونها بالديمقراطية المباشرة على مستوى القاعدة. ولكي يكون عمليا يرى النيهوم أن الأمر لا يمكنه أن يتحقق إلا في مؤسسة المسجد الداعي إلى رد الاعتبار لها باعتبارها اللبنة الأولى والرئيسية للممارسة الديمقراطية الشورية المقترحة. نجده هنا يقول بوضوح «أن الإسلام لا يملك وسيلة إدارية لأداء أهم فرائضه (يقصد الشورى) سوى لقاء يوم الجمعة وحده، لا غير». كما إن فهمه لعقيدة أو واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هنا يبدو مسقطا وملتبسا. فهو يعارض بوضوح شكله الفقهي الحنبلي القائم على مؤسسة الحسبة والسلطة العقائدية القهرية، ويحيد به عن مضمونه المعتزلي الكلامي محاولا تعسفا ضمن أركان التأسيس الشوري الديمقراطي الداعي إليه.

> لاشك في حجم الارتباك والحيرة التي تنتاب كل متمعن في أفكار وطروحات المفكر الليبي الصادق النيهوم. ومردها صعوبة موضعة هذا المفكر غير المشكوك في تجديده وجديته وسعة تبحره واطلاعه وسفره الطويل في متون الكتب والمدونات واللغات المتصلة بعلوم الأديان وفي مقدمتها الإسلاميات.

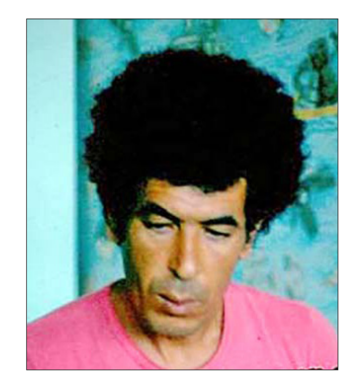


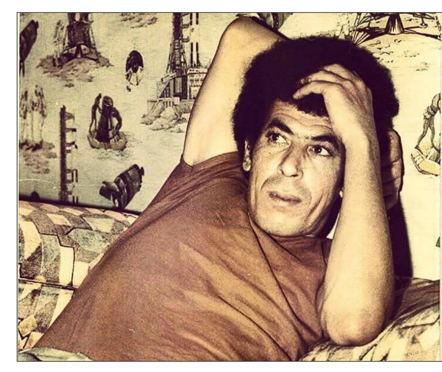


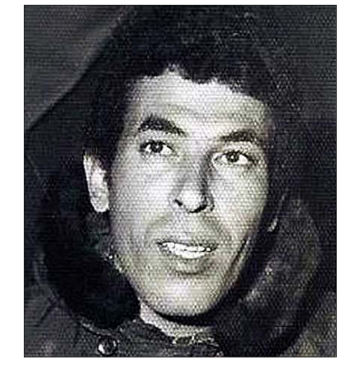
لئن كان اعتبار الديمقراطية مرادفا للشورى ليس بجديد عن الفكر السياسي الإسلامي المعاصر إلا أن النيهوم وحده من أعطاه طابعا تقنيا ممارساتيا متماسكا في دعوته لرد













الاعتبار لمؤسسة المسجد وتطويرها والحديث بإسهاب عن الوظائف المجتمعية والسياسية، التي تضطلع بها وفق تصوره. ولا بد من التنويه هنا إلى أنه خلافا لمنظري ما يعرف بالإسلام السياسي الذين لا يقدمون أي مقاربة أو مقارنة جديدة ومتماسكة لمبدأ/شعار الشورى وعادة ما يكتفون بالمدح العقيم حول أصالتها وجديتها وأسبقيتها عن الديمقراطية فإن النيهوم وحده من أوجد لها تطبيقا عمليا هو الديمقراطية القاعدية المباشرة وحاضنا اجتماعيا هو مؤسسة المسجد عبر التطوير العملي والوظائفي لما يستطيع القيام به من أدوار.

فالاتفاق أو الاختلاف مع ما يطرحه لا ينزع عنه صفة المجدد هنا والمقدم لحل عملي للمآزق السياسية والأخلاقية والمجتمعية المعششة في الجسد المسلم، والتي كانت السبب في طرح سؤال النهضة العربية المعلوم وتتالي المحاولات والمقاربات المجيبة عنه لاحقا وتصور النيهوم ليس إلا واحدا منها.

لم يحظ مشروع الصادق النيهوم النقدي باهتمام لافت لدى المهتمين بالفكر العربي المعاصر وداخل الأوساط الأكاديمية والبحثية، ربما للصعوبة الواضحة في تصنيفه داخل سلم الخطاب النقدي المعاصر أو لمراوحته بين الأدب والموسوعات والنقد، رغم أن هذه التفصيلة أيضا متصلة بالتصنيف سواء في خانة الأدباء أو المفكرين والمصلحين أو الأكادميين الموسعيين ومدى الاتصال والانفصال بين كل منها. غير أننا نظفر في كتاب المفكر اللبناني علي حرب «نقد النص» بدراسة نقدية هامة ومفصلة على هامش كتابه «الإسلام في الأسر»، لعلها تكون أبرز ما كتب عن النيهوم نظرا للقيمة النقدية لكاتبها وانشغاله بكتابات زملائه من الناقدين والمفكرين العرب، لذا يهمنا جدا التوقف عندها.

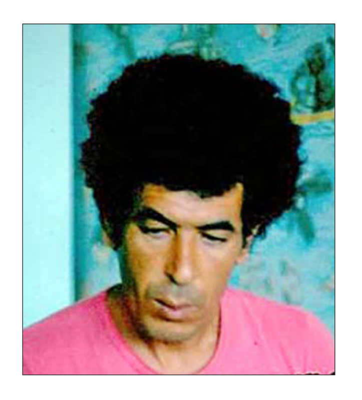


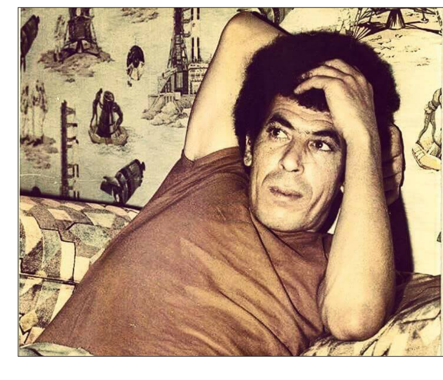
لاربما بالغ علي حرب في نقده للنيهوم في التركيز على معاداته للغرب وحاول حشره ضمن طائفة من الخطابات السطحية الصدامية المليئة بالحجب والتناقضات على طول الدراسة. بل حتى حديث حرب عن رفض النيهوم للديمقراطية والمنجزات الغربية فيه شيء من الشطط.

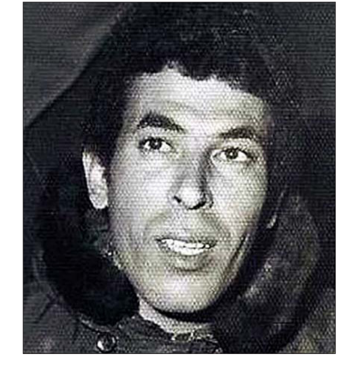


يفهم حرب أن النيهوم يميز بين الإسلام في صفائه ولحظته التدشينية القصوى وبين التطبيقات الفقهية والسياسية والمجتمعية المحرفة له والآسرة أو المغيبة لهذا الجوهر، حيث يتناق الواقع مع المثال أي النموذج والتطبيق. ويرى في دعوة النيهوم إلى تحرير الإسلام من أسر الفقهاء وسلاطين الإقطاع نفس الدعوة المنادى بها من طرف الحركات السلفية والدعاة الحاليين والمؤسسة على نموذج أعلى مفترض يتوقف عند عهد الخلفاء الراشدين الأول والثاني ويعمل على إعادة إنتاجه حاضرا وحلا للانحرافات الطويلة اللاحقة. بل يراه أكثر مغالاة ممن ينتقدهم لأنه يقرون في بعض الأحيان بوجود أخطاء وممارسة سلبية في الحقب التاريخية التالية وجب تلافيها وإيجابيات تستحق الشكر والتثمين. بينما يذهب هو إلى نفيها كليا والقطع معها لفائدة إسلام متعال عن الوقائع والملابسات والممارسات التاريخية والإكراهات.

ويرى حرب في ما يذهب إليه النيهوم محاولة لإلغاء حقب تاريخية كاملة وسير رجالات ومجددين وفقهاء أخطأوا وأصابوا وفق إمكانات عصرهم. فمنهم من جلب الفلسفة من اليونان وأعاد تقديمها وتوظيفها للدفاع عن العقيدة ومن جدد أصول الفقه ومارسه وفق نوازل عصره، وهو المبحث الذي يرى حرب أن النيهوم يريد نسفه كلية بسخطه









على ممارسات الفقهاء التسلطية الفاسدة في حين أنه منجز مبحث معرفي في حاجة للمقاربة والدراسة والنقد.

الجزء الثاني في دراسة حرب مهم كثيرا بدوره لأنه يتعرض لفهم النيهوم للديمقراطية. فهو يعتبر أن دعوته لاعتبارها صحبة كل المفاهيم الحديثة المجاورة لها مترجمة من الغرب ومسقطة تعسفيا على واقعنا دعوة مخاتلة. لأن النيهوم بدوره صناعة غربية معرفيا ويفتقد للجدة والابتكار ولا يختلف عن باقي الخطابات التي تتلمذ مصدروها في الغرب دون أن يتوقفوا عن ذمه ومدح كل ما أنتجه من قيم. كما يرفض حرب بشدة فكرة جعل الجامع منبرا لتحقيق الشورى والعمل العمومي الخلاق نظرا لأن الجوامع تحتكرها طوائف وفئات تروج لخطاباتها داخل أنصارها وكثيرا ما تهيمن عليها حركات إسلامية متطرفة تدعو من منابرها إلى إلغاء الديمقراطية والكفر بكل مظاهر الحياة المعاصرة. بل حتى في العصر الإسلامي الكلاسيكي لا نظفر بهكذا وظائف للجوامع باستثناء أنها كانت منابر للعلم والتدريس قبل تأسيس الجامعات والمدارس. أما السياسة أو الشورى فتدار خارجه. ويعتبر هذا الحل على قدر من الطرافة والمثالية غير المنسجمة مع الواقع.

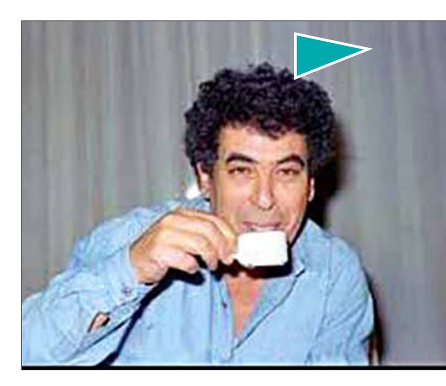
ربما بالغ علي حرب في نقده للنيهوم في التركيز على معاداته للغرب وحاول حشره ضمن طائفة من الخطابات السطحية الصدامية المليئة بالحجب والتناقضات على طول الدراسة. بل حتى حديث حرب عن رفض النيهوم للديمقراطية والمنجزات الغربية فيه شيء من الشطط لأن النيهوم ذاته، كما سبق أن ذكرنا، يستعمل الديمقراطية كمرادف للشورى ولا يخلو خطابه من مصطلحات معاصرة ومحاينة. ويعتبر حرب بقدرة النيهوم على التشخيص النافذ والفعال للانحرافات اللبيرالية والإسلاموية المعاصرة وما يعج به مجمل الخطاب السياسي العربي المعاصر من مخاتلات وتلاعب ومغالطات. وبالتالي يفتح لنا الناقد اللبناني البارز بابا مهما للتعريج على ميزة مهمة في مصنفات النيهوم تتعلق بنقده البارع والحاد للممارسات الفقهية والسياسية الإسلاموية الحالية. وهنا بالذات تتجلى راهنية هذا المفكر وجدته وحداثة أدواته ومقارباته، من جهة. ومن جهة، ثانية أهمية ما كتب وآنيته مع هيمنة هذه الحركات الموظفة للمشترك الجمعي العقائدي خدمة لمصالح سلطوية دنيوية.

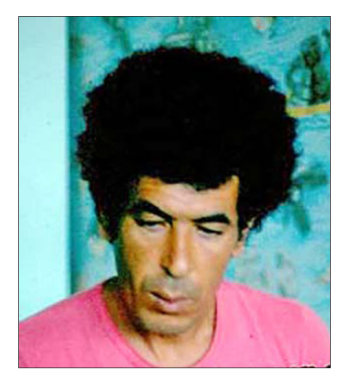
لقد وظف النيهوم ببراعة واقتدار ترسانته المعرفية وتعمقه في التراث والفلولوجيا وتحليل الخطاب وغيرها من حقول المعرفة لكشف مختلف أصناف التوظيف والتلاعب الممارسة اليوم على نطاق واسع إسلاميا من طرف هذه الجماعات المحرفة للفهم الجمعي والمهددة بمغالطاتها وممارساتها للوعي والنسيج المجتمعيين، وكأنه كان مستشرفا للحظة. وهذا في حد ذاته مكسب معرفي للخطاب العربي المعاصر يجعل صاحبه إبن هذه اللحظة التاريخية الملغمة ويجعلنا في حاجة ملحة لسجالاته وكتاباته، بغض النظر عن التباس التصنيف وطوباوية أو واقعية المشروع المتكامل، الذي يقترح.

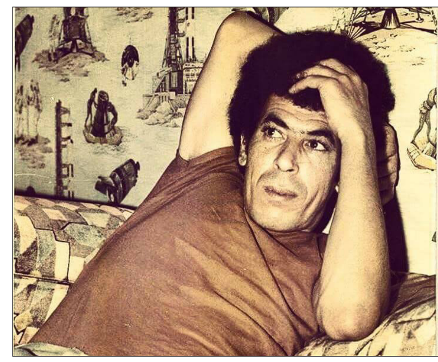
فالاتفاق أو الاختلاف مع ما يطرحه لا ينزع عنه صفة المجدد هنا والمقدم لحل عملي للمآزق السياسية والأخلاقية والمجتمعية المعششة في الجسد المسلم، والتي كانت السبب في طرح سؤال النهضة العربية المعلوم وتتالي المحاولات والمقاربات المجيبة عنه لاحقا وتصور النيهوم ليس إلا واحدا منها.

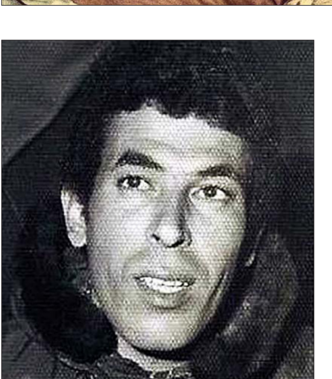
لقد وظف النيهوم ببراعة واقتدار ترسانته المعرفية وتعمقه في التراث والفلولوجية وتحليل الخطاب وغيرها من حقول المعرفة لكشف مختلف أصناف التوظيف والتلاعب الممارسة اليوم على نطاق واسع إسلاميا من طرف هذه الجماعات المحرفة للفهم الجمعي والمهددة بمغالطاتها وممارساتها للوعي والنسيج المجتمعيين، وكأنه كان مستشرفا للحظة. وهذا في حد ذاته مكسب معرفي للخطاب العربي المعاصر يجعل صاحبه إبن هذه اللحظة التاريخية الملغمة ويجعلنا في حاجة ملحة لسجالاته وكتاباته، بغض النظر عن التباس التصنيف وطوباوية أو واقعية المشروع المتكامل، الذي يقترح.

«النيهوم» مستشرفا واقع ليبيا اليوم وكأنه يعيشه







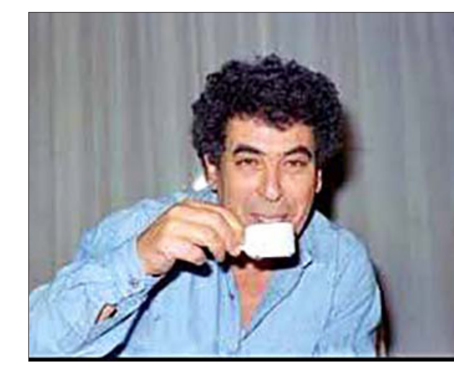


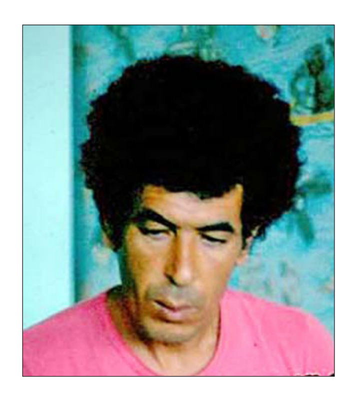


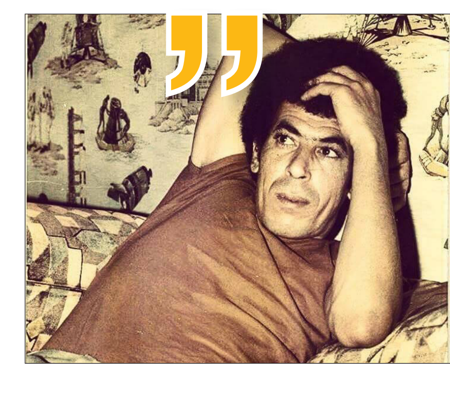


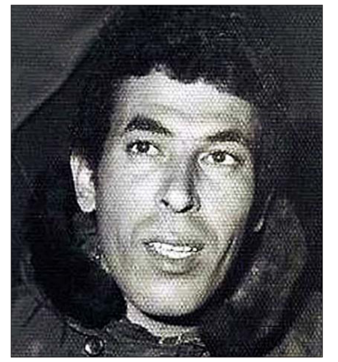
الحبيب الأسود

يبدو الصادق النيهوم السابق لعصره، أبرز المفكرين الذين شخصوا المجتمع الليبي، ونظروا إليه بعمق القارئ المتفحص لأحواله، كان ذلك منذ ستينات القرن الماضي، وكأنه يقرأ ويتابع ما يدور اليوم في البلاد المنكهة بالحروب والآلام والفساد والتجاذبات المعلنة والخفية.











يقول النيهوم «الطريق المتشعب أمام بلادنا يدعونا جميعاً إلى المشاركة في عملية البحث المضنية عن الاتجاه المطلوب الذي يجب أن نجده الآن ونضع فوقه علاماتنا قبل أن تبدأ سنوات التيه. وعلينا أن نفعل ذلك قبل أي شيء آخر سواه، فكل خطوة في الاتجاه الخطأ ندفع ثمنها مرتين» مشيرا الى «إن ليبيا تحتاج الى مدارس ولكنها تحتاج أكثر الى حوار طويل ومتزن يتناول معظم بديهياتنا بالنقاش، يتناول سلطة الرجل وسلطة الفقيه وسلطة كبار السن » وكاشفا بكل بساطة أنه «ما دام مجتمعنَا يسْمح لفقيه أمّي أنْ يحشرَ نفسَه بين «العلماء» ويقول ما يشاء لمنْ يشاء باسْم اللّه شخصيّاً، وما دام الطّفل لا يستطيع أنْ يفعل شيئاً تجاه ما يسمعه من أساطير الفقيه سوى أن يطوع نفسه للتعايش معها في الظلام، فلا مفر من وقوع كارثة »

سيكون على النيهوم أن يقضي الجانب الكبير من حياته غريبا في ملاذات عدة، وبين مدن كثيرة، هاربا من الشمس اللافحة الى الثلج الحارق، متراوحا بين أفكار وأهتمامات ورؤى وخرافات وأسئلة ومواقف ولغات وحضارات وعقائد طالما ألهمته القدرة على مواجهة قدره، بعد أن إستشرف مستقبل بلده ليبيا بعيني زرقاء اليمامة ونبوءات عراف يجيد قراءة الرمل « إن ليبيا بلد مبني من القش ويطفو فوق بحيرات من البترول فما أسهل أن تندلع النار فيه، أن تحرقه من أساسه، ولكن ذلك لن يحدث الأن لأننا لم نكتشف النار بعد، نحن المساكين الموغلون في النار والعناد»



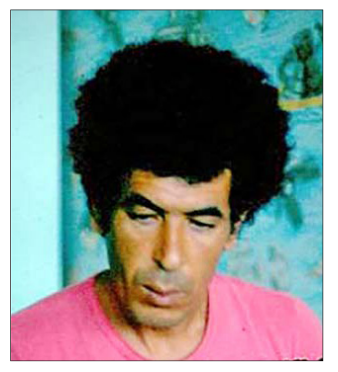
بعد رحيل النيهوم إكتشف الليبيون النار التي يحرقون بها بلادهم منذ سنوات، فالتطرف والإرهاب والصراع على السلطة وثقافة الغنيمة وعقلية الإقصاء والرغبة في إحتكار الثروة المتدفقة من تحت رمال الصحراء القاحلة والتدخلات الخارجية، كل تلك العناوين تزيد من إضرام لهب المعركة في البلاد، بينما «الرجال مازالوا يفهمون الوطنية باعتبارها صراخا غاضبا من إهمال الدولة وحدها،وتجميع الأكاذيب المخجلة فوق أرصفة المقاهي في أيام العطلة.

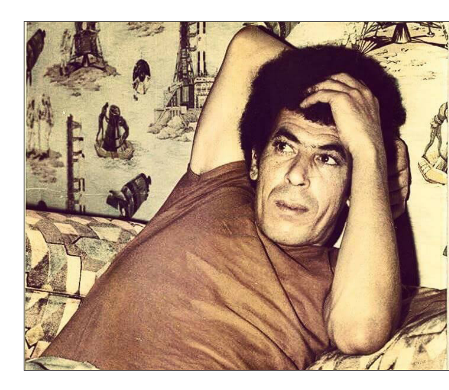


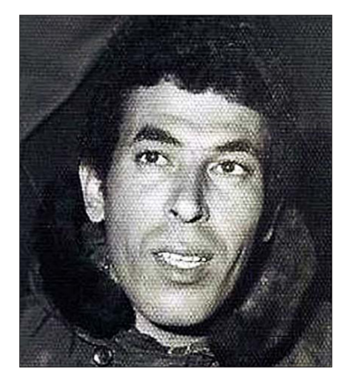
بعد رحيل النيهوم إكتشف الليبيون النار التي يحرقون بها بلادهم منذ سنوات، فالتطرف والإرهاب والصراع على السلطة وثقافة الغنيمة وعقلية الإقصاء والرغبة في إحتكار الثروة المتدفقة من تحت رمال الصحراء القاحلة والتدخلات الخارجية، كل تلك العناوين تزيد من إضرام لهب المعركة في البلاد، بينما «الرجال مازالوا يفهمون الوطنية باعتبارها صراخا غاضبا من إهمال الدولة وحدها،وتجميع الأكاذيب المخجلة فوق أرصفة المقاهي في أيام العطلة،والجري خلال أشهرالصيف وراء مؤجري الشقق وباعة البنات على طول ساحل الفقراء مستعرضين حصيلتهم من مدخرات ليبيا،كأن تلك النقود قد جاءت بطريق العرق الشريف » وفق تعبيره .

حتى الديمقراطية التمثيلية من خلال الأحزاب التي ظهرت في البلاد بعد 2011، انتقدها النيهوم باكرا، هو في هذه المسألة لا يختلف عن صديقه اللدود معمر القذافي الذي كان يجتمع معه في جملة أفكار، وصلت الى حد الاعتقاد بتأثير حقيقي لكل منهما في مواقف وتجربة الثاني، فالرجلان كانا يتقاربان في العمر والبيئة والفكر والرؤية والاستشراف











يقول النيهوم «إن الديمقراطية الحزبية ليست فكرة طرأت على عقل مفكر، بل بيئة فرضتها ظروف الثورة الصناعية، لم يكن للأوروبيين يد في اختيارها،إلا بقدر ما كانت لهم يد في اختيار جلودهم أو لون عيونهم. ورغم أن شعوباً كثيرة أخرى،قد عمدت إلى تقليدهم،فإن ذلك كان مجرد نوع من خداع البصر بوسائل المكياج المؤقت» ولكن ما الحل ؟ هو يرى إن « الشعوب لا يقتلها الاستعمار ولا تحييها الحرية، ولكنّ فرص البناء المتاحة هي التي تقرر ذلك وحدها.. وليس ثمة شك أن الزمن أهمّ العوامل بالنسبة للبناء والهدم على السّواء » ف«بناء المجتمع الحر يبدأ بكسر عزلة الفرد وكسب ثقته للخروج من مخبئة النفسي» أما «الثورة فلا يحددها الشكل السياسي بل القيم الخلُقية الكامنة وراء جميع أنواع النشاط الإنساني. إنّها تحدث لكي تحقق قيما خلُقية وليس أهدافاً سياسية مجردة من هذه القيم، لكن تاريخ الثورات يشير بوضوح إلى أن الثورات احتواها دائما هدف سياسي ما وسخرها لخدمته حتى أفرغت الثورة نفسها من محتواها الخلُقي في خدمة أغراضها السياسية».

أن نبوءات النيهوم قبل عقود هي التي جعلته يشير الى «إن ليبيا تحتاج الى مدارس ولكنها تحتاج أكثر الى حوار طويل ومتزن يتناول معظم بديهياتنا بالنقاش، يتناول سلطة الرجل وسلطة الفقيه وسلطة كبار السن » هذا الكلام موجه بالأساس فهم طبيعة مجتمع ذكوري، محكوم بثقافة دينية مزورة، وبسلطة قبلية لم

> حتى المرأة الليبية، يقول النيهوم «من وجهة نظرنا الحالية تعيش حرة كريمة تحت وصاية الرجل، لكننا ننسى أن أول شرط في حكاية الحرية والكرامة أن لا يعيش المرء تحت وصاية أحد غير ضميره. إن الرجل يتذكر هذه الحقيقة البسيطة فوراً إذا دعاه أحد ما إلى أن يعيش ذات مرة حراً كريماً تحت وصاية المرأة،ومن وجهة نظرنا تبدو الأسرة الليبية خلية متماسكة لأنها تعيش تحت سقف بيت واحد وتأكل من قصعة واحدة تحت رقابة الرجل، لكننا ننسى أن هذا النوع من التماسك - إذا لم يخل من الرقابة كلية - فإنه في الواقع مجرد نوع من معسكرات الاعتقال».

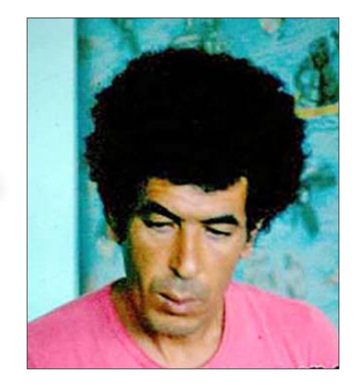
تخرج من قمقم التاريخ الملوث

كان النيهوم نبتا بريا من أرض ليبيا المهيأة عبر التاريخ لإنتاج المواهب بكل أشكالها الإيجابية والسلبية، وكان منذ بداياته متمردا على الساطة بكل عناوينها، لكن إرتباطه بالبلاد كان واضحا حيث يخاطب أبناء وطنه قائلا : « الوطن ليس قطعة الأرض وحدها، وإذا كانت ظروفي المعقّدة قد قررت مصير ارتباطي بالأرض، فأنا لا أعتقد أن ذلك يعني اقتلاعي من تراب ليبيا، فأنا جزء منكم ولا أستطيع أن أنسى ذلك حتماً إذا أردت أن أنساه» لكنه يشير بشيء من القسوة الى الواقع بالقول «إن مستوانا الخلقي مثل بقية مستوياتنا ما يزال متأخرا رغم كل النوايا الطيبة.والمرء يستطيع أن يلتقط مليون نموذج من ليبيا لتأكيد هذه الحقيقة حتى يصاب بالقيء،فقد ساعدت ظروف الرخاء على إبراز ملامح النماذج إبرازا هائلا لا تتخطاه العين،والرخاء اختبار قاس فشل شعب ليبيا في اجتيازه حتى الآن »

ولكن هلل للفكرة أن تغير الواقع في بلاد العرب ، هنا يقول النيهوم «الزعم بأن تغيير المجتمع رهن بتغيير أفكاره، نظرية فقهية ثبت بطلانها منذ عصر ماركس على الأقل لم

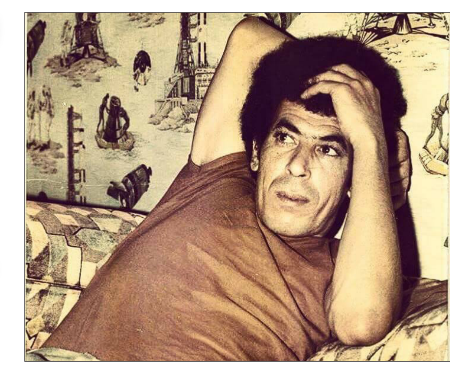


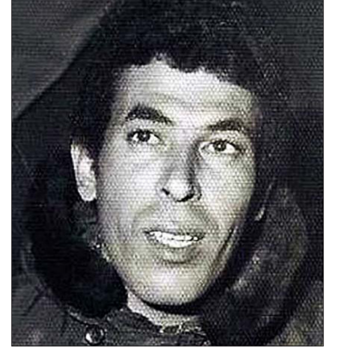
يكن بوسعها أن تقدم للعرب حلًا آخر، سوى أن تربطهم إلى عالم ما قبل الثورة الصناعية، وتورطهم في دعوات عقائدية متطرفة، على يد جيل بعد جيل من الأنبياء الجدد. ولعل التاريخ ما زال يخبئ للعرب أكثر من مفاجأة غير سارة، لكن محنتهم خلال حرب الخليج، سوف تظل شاهدًا كافيا على أن مائتي سنة من خطب الوعظ والإرشاد، لم تنجح في وقايتهم من شر شيطان واحد. إن تجاهل التاريخ، خطيئة عقابها أن يتجاهلك الواقع، فالعرب الذين يتوجه إليهم الدعاة بالخطاب، ليسوا في وضع يسمح لهم بالإنصات أصلًا. إنهم - مثل ركاب طائرة مخطوفة - أمة لا تملك حق الاختيار، ولا تستطيع أن تقرر مصيرها، وليس بوسعها أن تستفيد من أية دعوة أخرى، سوى تحريضها على استعمال الحيلة، للخلاص من خاطفيها بأي ثمن، وفي أقرب فرصة ممكنة »



يبدو النهيوم قاسيا في نعته للوضع الأخلاقي في ليبيا وكأنه عاش كل تجليات أحدث 2011 وما بعدها من نهب وسلب وحقد وكراهية وقتل على الهوية وإقصاء وإلغاء وتلاعب بالمصالح العليا للبلاد وفساد على جميع الأصعدة وتجاوزات في حق الوطن والمواطن،وهاهو يقول « نملك مجتمعا يحمل كل سمات المجتمع الجاهل.. فالفرد الليبي يتناقض مع مجتمعه - إذا كنا معترفين بوجود التناقض - لأنه ينطلق من فكرة مؤداها أنه بالذات (مركز العالم)، وأن الدنيا تدور حوله.. لكن مجتمعه يتناقض معه أيضا لأنه بدوره يعتبر نفسه مركز الأرض.. إن أعراض الجهل واحدة بالنسبة للفرد وبالنسبة لمجتمعه..

> كان رجلا ممتلئا بالإيمان والوحدة، مهموما بما حوله، متأسيا بالقلم والورقة، ليكتب وفق قوله : « لبدلة النحاس المتينة.. لأربعة آلاف ميل معبأ بالشوق والأمنيات.. للجزار وباعة العظام وسائقي عربات الأجرة والنقل.. وللخفراء والطلبة. أنا أكتب لكل من أعرفهم، وليس ثمة ما يخيفني من أي اتجاه، فالنقد لا يشعرني بالارتباك.. وإذا كان أحد لا يفهمني الآن، فسوف يأتي رجل آخر ويفهمه كل أحد على الفور . أنا لا أريد أن أحقق شيئا سوى أن أهيء مكانا لذلك الرجل القادم في الطريق.. أجعله أكثر ألفة وأعطيه فرصة ليقترب خطوتين. ما يمدّني بالقوة: أنا أعرف أنه قادم.. وأنت تعرف ذلك أيضاً».





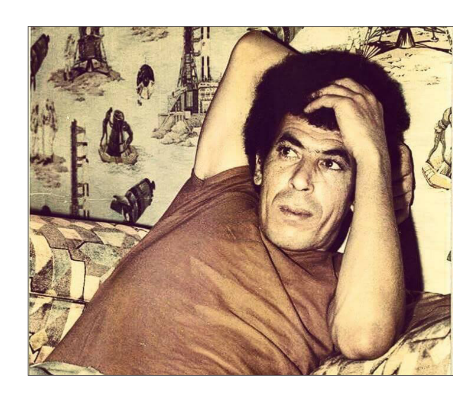
كلاهما عالم بذاته.. كلاهما على صواب دائما.. كلاهما أناني وجاهز الخطط وعارف بكل شئ.. كلاهما يعتقد أنه يسير في طريق الخير والسعادة» و« اللعبة تمضي دائما على ما يرام ما دامت مصلحة هذين النقيضين تجمعهما معا في نقطة واحدة، لكنه إذا اختلفت مصلحتهما بطريقة ما فإنهما لا يجلسان معا لنقاش طبيعة الاختلاف وتقرير شكل الخطأ والصواب، بل يدخلان فورا في الصدام، فيحقق الفرد مصلحته في الخفاء عن (أعين المجتمع) أو تكتشفه (أعين المجتمع) وتشنقه على باب المدينة. وأسوأ ما في الأمر أن (تحقيق المصالح في الخفاء) لا بد أن يدعو بالطبع إلى نوع من النفاق الاجتماعي الذي ينتهي عادة بأن يرتكب كل فرد في المجتمع نفس الرذائل في الخفاء ويطالب بشنق من يرتكبها علنا. وإذ ذاك تصبح أمراض مجتمعنا أصدقاء سريين»

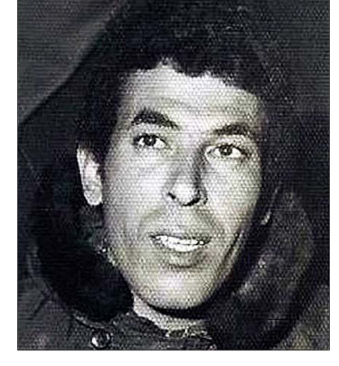


حتى« الكرم في مفهوم هذا المواطن (الليبي) المذعور ليس فكرة من أي نوع، بل







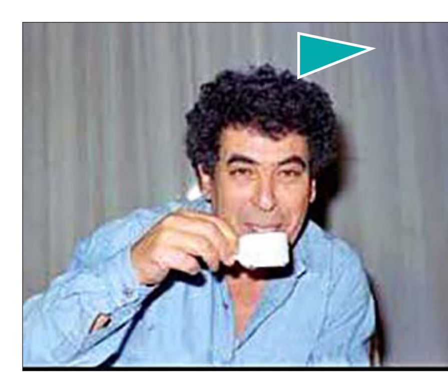


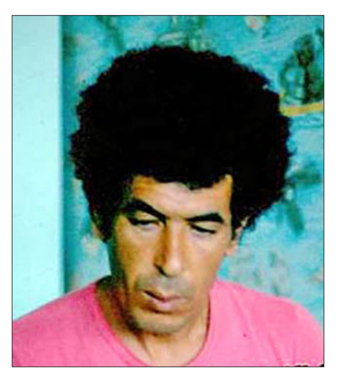


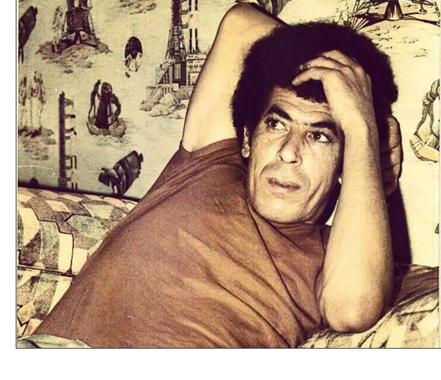
(ضريبة) مؤلمة لا بد من أدائها تجاه كل معارفه مهما كلفه الثمن. إذا وجدته في المقهى لا بد أن يدفع عنك الحساب، ليس لأنه يريد أن يدفع بل لأن العادة أن يدفع المرء حساب معارفه إذا وجدوه في المقهى. وإذا تجاهل أداء هذه (الضريبة) فإن معارفه بالطبع سوف يسلخون جلده بألسنتهم الكريمة ويعتبرونه هارباً أبدياً من الضرائب» ثم «إن هذه العقوبة كفيلة بأن تجعل كل أحد يدفع قهوة كل أحد بعد أن يذبح له حصاناً. إنها كفيلة بأن تعطيك مجتمعاً كريماً مثل حاتم الطائي، لكن مشكلتك أنك لن تجد أحداً بين مواطنيك الكرماء يقرر ذات مرة تحت وطأة هذا الكرم أن يعمل شيئاً لله ويكف عن سرقة عداد الكهرباء، لأن سرقة العداد بالنسبة لحاتم الطائي ليست جريمة مدنية، بل غزوة مظفرة ضد قبيلة (بني مؤسسة الكهرباء). إنه قاطع الطريق الذي خدع كتب الأدب وجعلها تعتقد أن المرء يقطع الطريق فقط لكي يذبح حصانه لعابري الطريق» وفق رؤية النيهوم الذي يواصل الإمساك بمشرطه ليمارس جراحة إستثنائية للدولة والمجتمع.

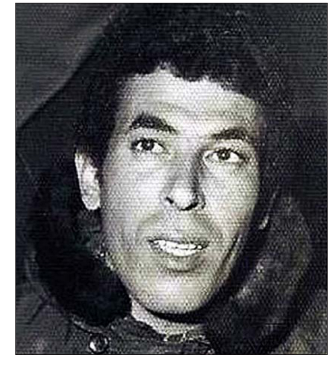
ويؤكد «الحقيقة ببساطة أننا لسنا بلدا صناعيا، ولا نستطيع أن نكون كذلك خلال ثلاثين عاماً من الآن.. فالصناعة حرفة باهظة الثمن تحتاج إلى مستويات خاصة من الخبرة والمهارات والنظم المالية المعقدة، ونحن في ليبيا لا نملك ما يكفي لصناعة علبة سردين عادية،و بغير تعمد للسخرية: نحن لا شيء.. إننا مجرد أمة عجوز تجلس في شمال إفريقيا المحرقة وتغسل قدميها في مياه البحر والمطر وتبيع براميل الزيت. وإذا كنا قد حققنا خلال مجموعة السنوات الماضية أكثر من قفزة في ميدان التعليم والتشريع والنهوض بمستوى الحياة المادي، فإن الأمر ما يزال مجرد عمل فوق السطح. أعني مجرد محاولة لترميم جدارنا المتهدم ولكن ليس لإعادة بنائه.فالبناء يبدأ من إقامة الأساس..ويبدأ بالمسح الشامل وتوفير الطاقة المطلوبة وإعداد الخطط، ونحن - رغم كل نوايانا الطيبة - لم نتجه قط لمواجهة هذه الحقائق المتسمة بالأصالة، لقد فعلنا كل ما في وسعنا لمنح المواطن الليبي فرصة «الاستمتاع بخيرات بلاده»، كأن الله قد ألزمنا ببناء الجنة في صحراء ليبيا، وفعلنا أكثر مما في وسعنا لإشباع رغبات الفرد الصغيرة من زيادة الرواتب مرتين في الشهر إلى توزيع علاوات السكن فوق الرصيف، ورغم كل جهودنا اليائسة فإن المواطن الليبي ما يزال - مثل جهنم - يطلب المزيد، وما تزال الحقيقة القديمة أكثر ثباتاً: إن الإنسان لا يشبع. ولو كان يريد أن يفعل ذلك لما خرج من الجنة أصلاً، فلماذا ندق رؤوسنا في الحائط؟ولماذا نواصل لعبتنا المرهقة لشراء سعادة الإنسان الليبي بنقود براميل الزيت؟ فالواقع أننا عبر هذا الخطأ نصيب أنفسنا بالدوار مرتين، ونملأ بطن مواطننا بالطعام ونضعه في الشمس لكي يحلم برمضان المعظم وفضيلة الجوع.ثم تعتريه أعراض التخمة، ويتورم بطنه مثل برميل الزيت ويقتله الملل على الرصيف، ويقتله أيضاً في الطريق إلى أثينا.. وتصبح ليبيا مقبرة المواطنين السعداء»

حتى المرأة الليبية، يقول النيهوم «من وجهة نظرنا الحالية تعيش حرة كريمة تحت











وصاية الرجل، لكننا ننسى أن أول شرط في حكاية الحرية والكرامة أن لا يعيش المرء تحت وصاية أحد غير ضميره. إن الرجل يتذكر هذه الحقيقة البسيطة فوراً إذا دعاه أحد ما إلى أن يعيش ذات مرة حراً كريماً تحت وصاية المرأة،ومن وجهة نظرنا تبدو الأسرة الليبية خلية متماسكة لأنها تعيش تحت سقف بيت واحد وتأكل من قصعة واحدة تحت رقابة الرجل، لكننا ننسى أن هذا النوع من التماسك - إذا لم يخل من الرقابة كلية - فإنه في الواقع مجرد نوع من معسكرات الاعتقال »

ولكن جزءا مهما من أسباب التخلف هي الثقافة المتوارثة «إن هذا المسلم الجديد الذي صنعه فقهاء بني أميّة على هواهم قد صار عمره الآن أربعة عشر قرنًا من دون أن يبلغ سن الرشد. فهو لا يزال مواطنًا معفيًا من مسؤوليته عن حياته، ومعفيًا من مسؤوليته عن شؤون الدولة التي تقرر مصيره، ومصير عياله أنا لا أريد هنا أن أحصر مشكلة استغلال الدين في البحث عن مصادر القوة المادية المعدة لتأدية الحروب

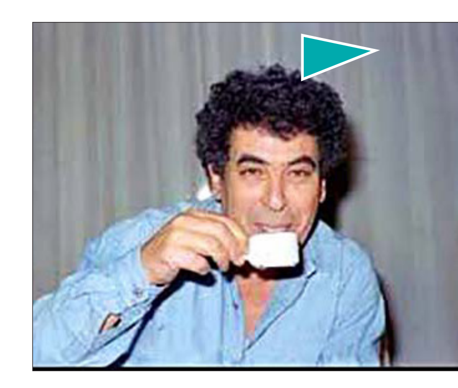


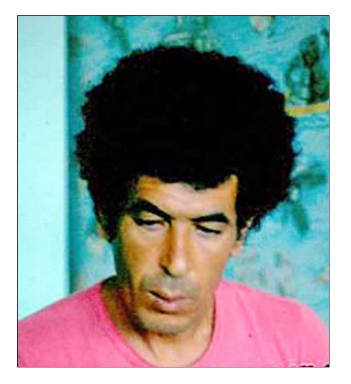
وحدها. فالواقع أن الأمر أكثر شمولا من ذلك، وأكثر قبحا وإيغالا في السذاجة المقامة على سوء الفهم والأنانية معا.

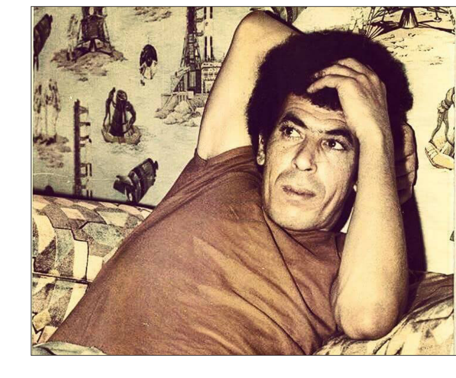
فالعجوز المضحكة التي تتسكع لإيفاء النذور بين أضرحة الأولياء، لا تفعل ذلك في الواقع من باب الرغبة في تحقيق حيلها الصغيرة بقوة سماوية شبه سحرية، فهي تريد أن تزوج ابنتها للبقال المجاور، وتريد أن تساعد زوجها في الحصول على سكن بالمجان، وتريد أيضاً مجموعة أخرى من الأشياء المعقدة التي لا تعرف وسيلة فعالة لتحقيقها سوى أن ترشو المرابط الميت بشمعة وقليل من البخور، والمرء يستطيع بالطبع أن يكسر قلبه الحزين من أجل تلك السيدة الرقيقة الحال، ولكنه في نهاية المطاف لا يجد بدا من النظر إلى المشكلة بأسرها باعتبارها مجرد مأساة جانبية لظاهرة الافتقار إلى (قوة الله).

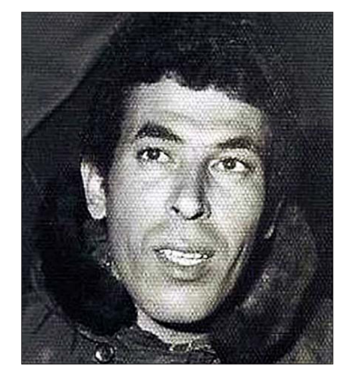
والفقيه نصف المقدس الذي يتشنج فوق المنبر لكي يطلب من الله أن يمد في عمر سيده ويرعاه ويحفظه محنطا إلى الأبد، لا يفعل ذلك في الواقع من باب الرغبة في تأدية حق الصلاة، بل من باب الرغبة في تأدية حق وزارة الأوقاف. فهو يريد أن يحتفظ بوظيفته، ويريد أن ينال علاوة الغلاء أيضاً ما دام ذلك ممكناً. ويريد مجموعة أخرى من الأشياء المعقدة التي لا يعرف وسيلة فعالة لتحقيقها سوى أن يرفع يديه إلى السماء ويترك قوة الله تقنع وزارة الأوقاف بأنه أحسن بضاعة في السوق.

وفرقة العيساوية المتجولة التي تذرع أزقة مدننا لاستجداء رحمة الله على أرواح الموتى، لا تفعل ذلك من باب الرغبة في إنقاذ الموتى، بل من باب الرغبة في الحصول على أجرة الحضرة، فالشيخ يحتاج إلى أن يعول أسرته مثل أي مواطن آخر، ويحتاج إلى قليل





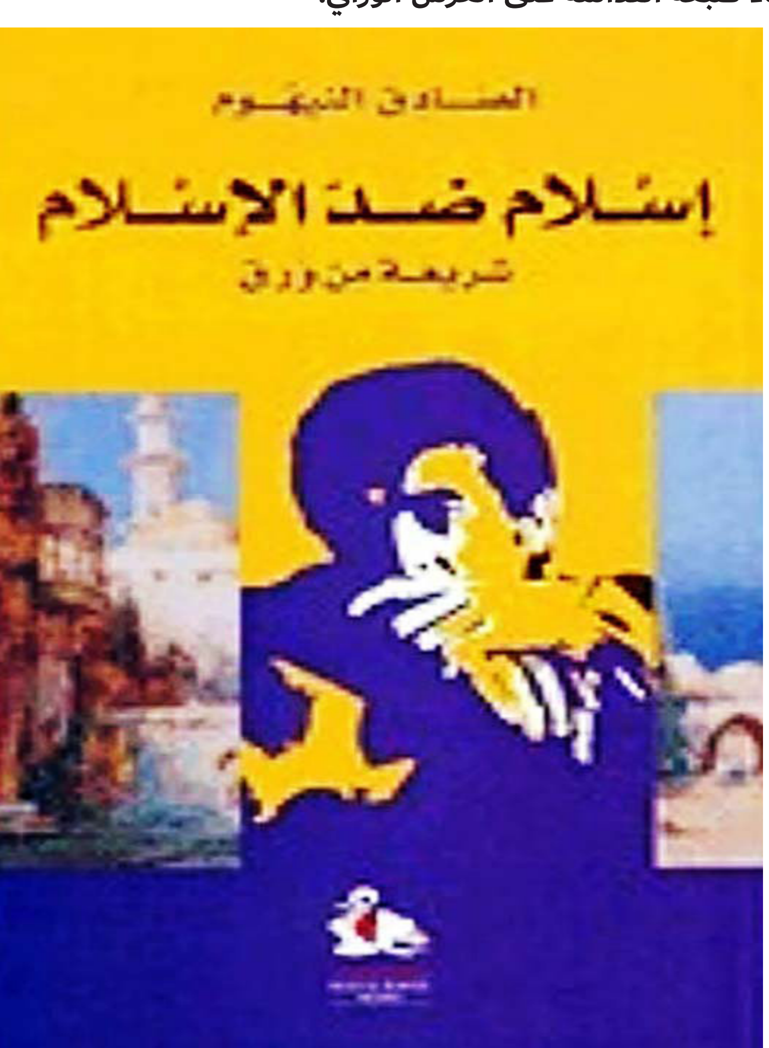






من النقود في المصرف، ويحتاج إلى مجموعة أخرى من الأشياء المعقدة التي لا يعرف وسيلة فعالة لتحقيقها سوى أن يحترف الوساطة بين قوة الله وبين سكان الأزقة. والأمر يصل هنا إلى حد الاحتيال البسيط، ولكن المرء يعرف بالطبع أن الاحتيال نفسه مجرد مظهر معترف به في معركة الحصول على لقمة العيش.

والسنوسية التي بنت ألف زاوية في ليبيا، وبنت أيضاً جامعة بأسرها. لم تفعل ذلك من باب الرغبة في نقل الليبيين إلى الجنة فقط، بل من باب الرغبة في تأكيد حق السنوسيين في الحكم، وإضفاء صبغة القداسة على العرش الوراثي.

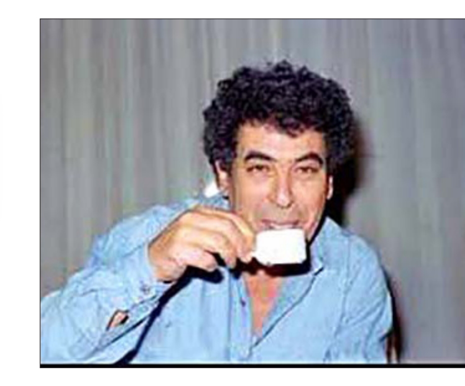
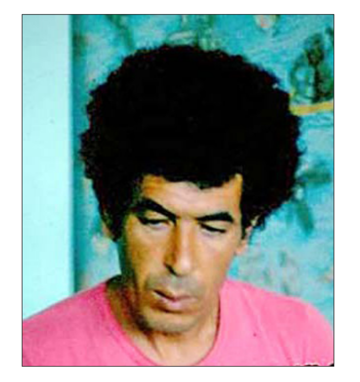
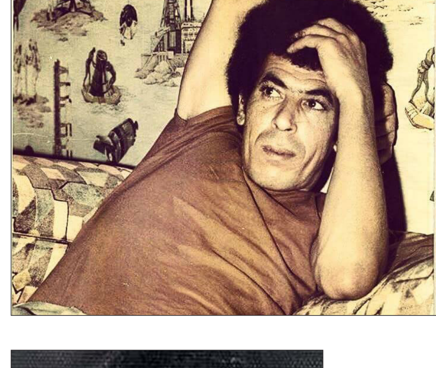
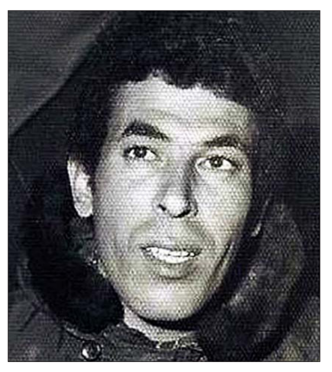
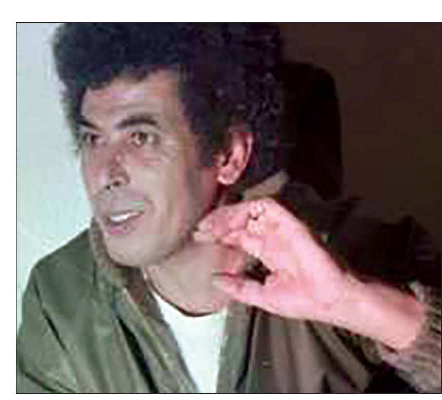


ومكة المكرمة لا تعمل الآن بمثابة مركز لالتقاء المسلمين فقط، بل لالتقاء مناصري الحلف الإسلامي أيضاً، واللعبة المشينة تمتد على طول العالم بأسره في جميع العصور وجميع الثقافات، فالإنسان البسيط التركيب الذي فعل كل ما في وسعه لكي يزيد كفاءته المادية باستئناس الثيران والبغال والآلات، لم يتوقف قط عن ارتكاب تلك الحماقة فيما يخص (استئناس) السماء أيضاً»

إن النيهوم عندما يتحدث عن نفسه يقول :« أنا لست رجلاً مهمّاً ولا صاحب سلطان.. ولكنّ إيماني بالله يجعلني أحسّ بأنّني سأظفر بصداقة كثير من الرجال الطيبين.. وقد حدث ذلك وما زال يحدث كل يوم.. وعندما تطويني غربتي وأحسّ بالألم يؤذيني من كل جانب.. أرفع رأسي إلى الله وأقول له إنّني وحيد.. أبداً لم يتخلّ الله عني.. كان يمدّني دائماً بعون ما.. بأصدقاء طيبين مثلكم.. وسوف يفعل ذلك دائماً أيضاً.. لأنّه يعلم أنّني لا أملك سواه.. ولا أريد أن أملك سواه.. أنا قويّ بإيماني.. أقوى من وحدتي وظروفي المحزنة.. وإذا التقينا في يوم ما.. فسوف أقص عليكم ما الذي يستطيع رجل وحيد مثلي أن يفعله بالإيمان وحده »

بتلك الكلمات قدم صادق النيهوم نفسه، كان رجلا ممتلئا بالإيمان والوحدة، مهموما بما حوله، متأسيا بالقلم والورقة، ليكتب وفق قوله : « لبدلة النحاس المتينة.. لأربعة آلاف ميل معبأ بالشوق والأمنيات.. للجزار وباعة العظام وسائقي عربات الأجرة والنقل.. للخفراء والطلبة. أنا أكتب لكل من أعرفهم، وليس ثمة ما يخيفني من أي اتجاه، فالنقد لا يشعرني بالارتباك.. وإذا كان أحد لا يفهمني الآن، فسوف يأتي رجل آخر ويفهمه كل أحد على الفور . أنا لا أريد أن أحقق شيئا سوى أن أهيء مكانا لذلك الرجل القادم في الطريق.. أجعله أكثر ألفة وأعطيه فرصة ليقترب خطوتين. ما يمدّني بالقوة: أنا أعرف أنه قادم.. و أنت تعرف ذلك أيضاً».

النيهوم.. في نقد الموروث وتجاوز السائد

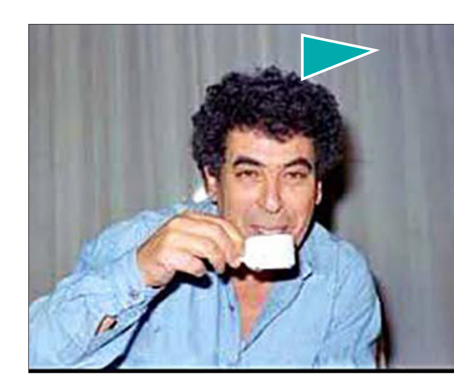






عبد الباسط غبارة

لا شك في أن الكتاب مثل منذ زمن بعيد نقطة فارقة في حياة الإنسان، والمجال الأكثر وضوحا له للبحث عن ذاته وعلاقاتها بالآخر والوجود. لكن جودة الكتاب وقدرته على المرور عبر العصور والمحافظة على مكانته ورونقه تبقى رهينة القارئ الذي يمنح الكتاب قيمة تخلده أو يطفئ بريقه منذ ظهوره، والأمر عائد هنا الى مدى قدرة الكاتب على شد انتباه القارئ في كل زمان ومكان وتلك الأمثلة لا شك قليلة.

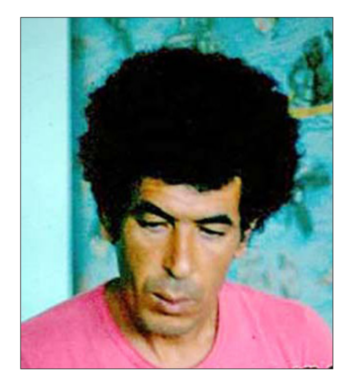






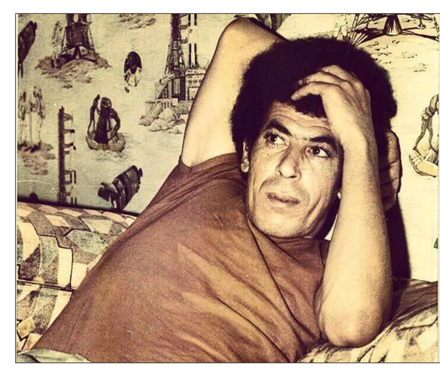
أحد هذه الأمثلة العربية هو الصادق النيهوم المفكر والأديب الليبي الذي مثل بالفعل ظاهرة أدبية وفكرية جديدة بسبب غزارة انتاجه الذي أثار اهتمام القراء بمختلف مستوياتهم بين مؤيد ومعارض. وبالرغم من مرور سنوات طويلة على وفاته ما يزال اسم النيهوم راهناً، خصوصاً في سياقه الليبي. إذ طالما جرت عادة العودة إلى تجربته بوصفه أحد أعمدة الأدب الليبي وظاهرة أدبية غير مسبوقة.

ويعتبر الصادق النيهوم أن القارئ هو المقياس الوحيد لنجاح الكاتب من عدمه، ففي حوار أجراه معه الكاتب الليبي «إبراهيم الكوني» يقول الصادق النيهوم عن هدفه من الكتابة:»لأنني أؤمن بأن التعامل مع الأفكار لا يمكن أن يؤدي مهمته إلا إذا تم داخل إطار العمل المحدد، ذلك يشبه التعامل مع الثروة، فأنت لا تستطيع أن تضع نقودك في الخزانة ثم تفرض أنها ذات قيمة حقيقية على الدوام، إنك لابد أن تضعها في السوق لكي تعرف قيمتها على وجه الضبط، والكتابة نوع من وسائل العرض لتحديد قيمة الفكر».

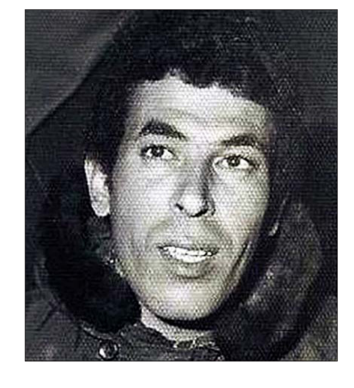


من هنا يمكن القول بأن النيهوم اختار لنفسه البحث في مشاغل الفرد والمجتمع ومحاولة طرحها بحثا عن الحلول الجادة. وقد تطرقت كتاباته الى جملة من الموضوعات والأفكار التي تثقل كاهل الإنسان فكان يكتب كما يقول «لبدلة النحاس المتينة، لأربعة آلاف ميل معبّأ بالشوق والأمنيات، للجزار وباعة العظام وسائقي عربات الأجرة والنقل، وللخفراء والطلبة. . أنا أكتب لكل من أعرفهم».

> الصادق النيهوم المفكر والأديب الليبي مثل بالفعل ظاهرة أدبية وفكرية جديدة بسبب غزارة انتاجه الذي أثار اهتمام القراء بمختلف مستوياتهم بين مؤيد ومعارض. وبالرغم من مرور سنوات طويلة على وفاته ما يزال اسم النيهوم راهناً، خصوصاً في سياقه الليبي. إذ طالما جرت عادة العودة إلى تجربته بوصفه أحد أعمدة الأدب الليبي وظاهرة أدبية غير مسبوقة.



ويشير البعض إلى أن موضوعات التنوير لدى الصادق النيهوم تشمل مساحات واسعة من الحقل الاجتماعي والسياسي والفكري ومن ثم فهي تتناول موضوعات متعددة، وقد ركزت دراساته التنويرية على التخلف الاجتماعي وتخلف الفكر الديني السائد في الشارع وليس في الكتب. وناقش تنوير النيهوم مسائل مهمة كموضوع الحجاب لدى المرأة المسلمة وطبيعة المجتمع العربي الذكورية، إضافة إلى نقد الإسلام السياسي والموقف من الديمقراطية.

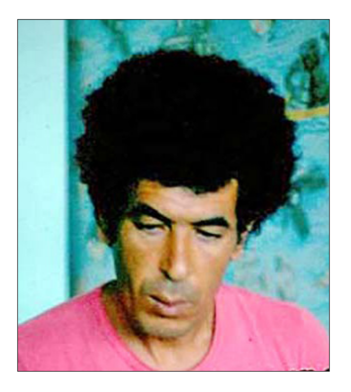


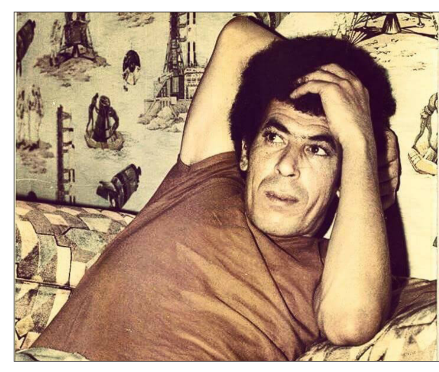
وتلوح من عناوين كتب النيهوم أن الموضوع الديني أكثر المواضيع إلحاحاً في كتاباته؛ حيث لا يكاد يخلو عمل كتابي له من اتصال مباشر تصريحي أو رمزي تضميني بقضية أو فكرة دينية وفي كثير من المناسبات، فنجد النيهوم في كتاب «الإسلام في الأسر» يفرّق بين مفهومي المسجد والجامع، ويعتبر الأول هو مكان الصلاة، فالمسجد اسم مكان للسجود وللصلاة، أما الجامع فهو في نظره مكان للقاء السياسي وليس للصلاة، أو ليس للصلاة فقط.

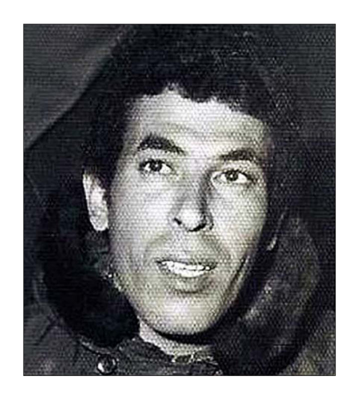


يقول النيهوم :»في المسجد أو خارجه، يستطيع المسلم أن يؤدّي فريضة الصلاة، فالإسلام يعتبر الكرة الأرضية بأسرها مسجداً مفتوحاً للخلوة مع الله، لكن ثمة فرائض أخرى لا يستطيع المسلم أن يؤدّيها إلا في مؤتمر إداري خاص، له سلطة أعلى من سلطة الدولة، ومسؤول إداري عن صياغة القوانين» ويتابع النيهوم قائلاً:»فالجامع ليس هو











المسجد، وليس مدرسة لتلقين علوم الدين، بل جهاز إداري مسؤول عن تسيير الإدارة جماعياً».

ويعتبر النيهوم أن معجزة الإسلام الأولى أنه اكتشف مفهوم (الناس - الشعب المسؤول عن مصيره وحياته) وأمر بتحريرهم من سلطة الإقطاع وتجاوز التقسيمات المصطنعة للناس وتغييب حرياتهم ليعود لهم حق الإشراف على الشؤون العامة في مؤتمر دوري أسّسه الإسلام ودعا إليه في يوم الجمعة، واعتبر كل من يتخلّف عنه آثماً، ولم يعتبر الانشغال بالتجارة عذراً، بل اعتبر هذا المؤتمر له الأولوية على كل شيء؛ حتى على كسب الرزق؛ لأنه يتعلّق بحياة المسلم نفسه، حيث تُقترح فيه القوانين وتُناقش المواضيع العامة كالميزانية والقرارات السياسية والإدارية المختلفة.

ولعل ما يثير الجدل في كتاب «الاسلام في الأسر» هو تأكيد النيهوم على أن الاسلام لم يبن على خمسة أركان فقط، مؤاخذا الفقهاء في فصل بعنوان «قواعد الاسلام ليست خمسا» على كونهم حصروا قواعد الإسلام في الأركان الخمسة المعروفة وهي: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت الحرام، وهي أركان لايوجد من بينها ما له علاقه بشؤون الحكم، الأمر الذي يشكل حسب النيهوم ثغرة واسعة جدا في الفقه الاسلامي.

> يشير البعض إلى أن موضوعات التنوير لدى الصادق النيهوم تشمل مساحات واسعة من الحقل الاجتماعي والسياسي والفكري ومن ثم فهي تتناول موضوعات متعددة، وقد ركزت دراساته التنويرية على التخلف الاجتماعي وتخلف الفكر الديني السائد في الشارع وليس في الكتب. وناقش تنوير النيهوم مسائل مهمة كموضوع الحجاب لدى المرأة المسلمة وطبيعة المجتمع العربي الذكورية، إضافة إلى نقد الإسلام السياسي والموقف من الديمقراطية.

ويستند النيهوم في هذا على أن نظرية الأركان الخمسة المستندة على حديث أبي هريرة، والتي تأسست في عهد بني أمية، ليس لها مرجع من القرآن الكريم ماعدا الاية 71 من سورة التوبة:»وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

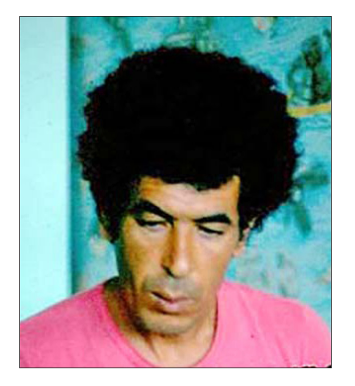
وهي الآية التي يستشهد به النيهوم لإثبات أركان أخرى تم إسقاطها من طرف الفقهاء خوفا من الأمويين الذين كانوا ممسكين بالسلطة بيد من حديد. ومن هذه الأركان التي استشفها النيهوم من الآية السابقة، «ركن الأمر بالمعروف» و»ركن النهي عن المنكر»، موضحا إن إسقاط هذين الركنين مرده إلى ما يتطلبانه من سلطة فعلية، فالمسلم لايمكن «أن يأمر بالمعروف إلا إذا كان ذا سلطة فعلية، وهو الشيء الذي حرم منه المسلم داخل جماعته السياسية حتى لا يخسرها بنو أمية»، وهو الأمر نفسه بالنسبة لركن النهي عن المنكر لأنه «ركن جماعي يتطلب أداؤه أن تكون الجماعة قادرة على عقاب أهل المنكر وهي فكرة من شانها أن تجرد بني أمية من قصورهم وحراسهم وتجرهم إلى الجلد العلني في الساحة العامة».

يضيف النيهوم ركن «حفظ حقوق المرأة» استنادا إلى ذات الآية، مؤكدا حقها في الطلاق إعمالا للآية 227 من سورة البقرة «وَإِنْ عَزَمُواْ الطَّلاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيم ».



إضافة إلى المساواة بينها وبين الرجل أمام القانون مصداقا للآية «وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوف». كما يضيف ركن «الدفاع عن المستضعفين» استنادا إلى الآية «وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً».

أما ركن «العمل بكتاب الله» فيعود مرجعه بحسب النيهوم في الآية القائلة «اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ» من سورة الأنعام، والآية «اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ» من سورة الأعراف، مفسرا إسقاط الفقهاء لهذا الركن بكون إقراره كان سيعني إلغاء العمل بباقي الكتب، الأمر الذي سيترتب عليه إسقاط حديث أبي هريرة عن الأركان الخمسة الذي يشكل أساس نظريتهم.

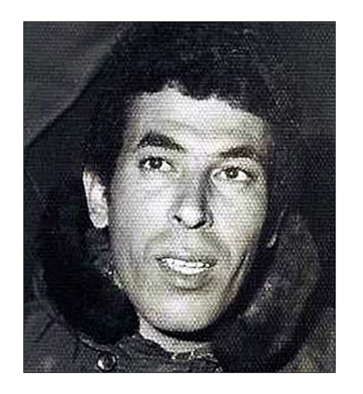


ويواصل النيهوم معركته مع الأفكار السائدة والمسلّمات الدينية التي أثقلت كهل الانسان العربي، حيث يرسم طريقاً آخر للمسلمين عبر تفعيل دور الشرع الجماعي في الإسلام، وتطوير مبدأ الشورى وتطوير الفقه الإسلامي حول المسائل الدستورية وأصول الحكم والمواطنة والمشاركة السياسية. فيرى أن غياب الشرع الجماعي لدى الأمة الإسلامية تم عندما ظهرت طبقة الفقهاء الذين تولّوا الحديث نيابة عن الأمة، واحتكروا لأنفسهم حق تقرير مشروعية أفعال الأمير، ومشروعية أي قرار أيضاً، فغاب صوت الناس وراء صوت الفقهاء.

يواصل النيهوم معركته مع الأفكار السائدة والمسلّمات الدينية التي أثقلت كهل الانسان العربي، حيث يرسم طريقاً آخر للمسلمين عبر تفعيل دور الشرع الجماعي في الإسلام، وتطوير مبدأ الشورى وتطوير الفقه الإسلامي حول المسائل الدستورية وأصول الحكم والمواطنة والمشاركة السياسية. فيرى أن غياب الشرع الجماعي لدى الأمة الإسلامية تم عندما ظهرت طبقة الفقهاء الذين تولّوا الحديث نيابة عن الأمة، واحتكروا لأنفسهم حق تقرير مشروعية أفعال الأمير، ومشروعية أي قرار أيضاً، فغاب صوت الناس وراء صوت الفقهاء.



وينتقد النيهوم الإجماع كمصدر للتشريع كون الرأي فيه قاصراً على بعض الرجال ذوي صفات معينة (ينفي عنهم صفة العلم) وليس اقتراعاً لكل الشعب أو لغالبيته؛ مما يغيّب فئات من المجتمع أولها المرأة وآخرها الطفل مروراً بالمسن والمراهق، حيث لا أحد يسمع صوتهم في أي تشريع أو قرار. ويرى النيهوم أن الفقهاء تحوّلوا إلى سلاح إعلامي ديني يتحلّق حول الخليفة أو الأمير لمواجهة المعارضة أو المنافسين والخصوم.

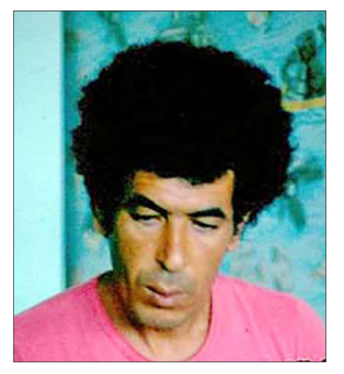


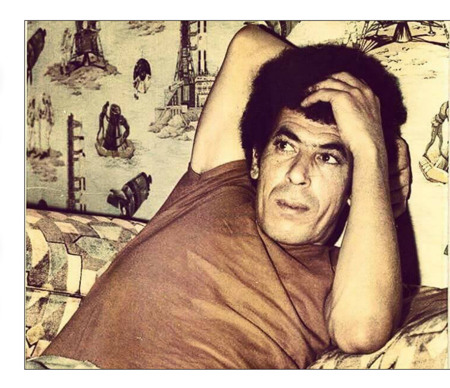
وقد ضرب مثلاً لذلك معارك التكفير التي كانت تدبُّ عند التنافس على الخلافة كما حصل عند اعتلاء العباسيين لسدة الخلافة ورميهم الأمويين بإشاعة الكفر، وكما حصل بينهم وبين الفاطميين في مصر؛ حيث كان كل طرف لديه فقهاء يفتون بعدم شرعية خلافة الطرف الآخر. ويأخذ النيهوم على الفقهاء تجاهلهم المواضيع التي تهم الناس في الحكم والإدارة والقضاء، وانشغالهم بالطقوس والشكليات.

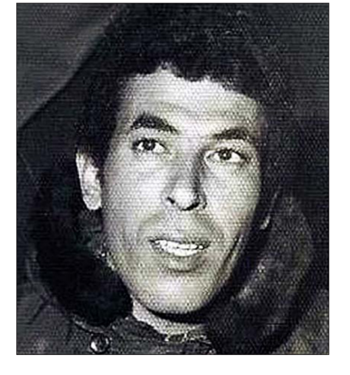


ويتطرق الصادق النيهوم الى قضايا ذات قيمة كبرى في حياة المجتمع العربي











كتشخيصه لطبيعة هذا المجتمع بأنه مجتمع رجال أي مجتمع تقوم رؤاه وممارساته على أساس ثقافة ذكورية لا ثقافة إنسانية يبنيها الرجل والمرأة على السواء. فيقول مقدمة كتابه «فرسان بلا معركة»: «مجتمعنا مجتمع الرجال، وذلك لا يعني بالطبع أن جميع مواطنينا من الذكور فقط، بل يعني بتفصيل أكثر أنه إذا أُتيحت لك الفرصة ذات مرةٍ لكي تتعرف على ثقافتنا من الداخل فلا بدّ أن تكتشف فوراً أنها غير محايدة تسودها وجهة نظر الرجل وحده، إنّ الفكر الذي ينظر إلى العالم من وجهة نظر الرجل وحده هو فكر متحيّز وغير قادر على التزام الحياد وفق خاصيته، لكنه يرى الأشياء بعين الرجل ويتجاهل عين المرأة والطفل، ويتجاهل أيضاً أن هذا الخطأ بالذات يجعله يبدو من الخارج بمثابة فكرٍ أعور، إنه مُعد لكي يرى نصف الحقيقة فقط».

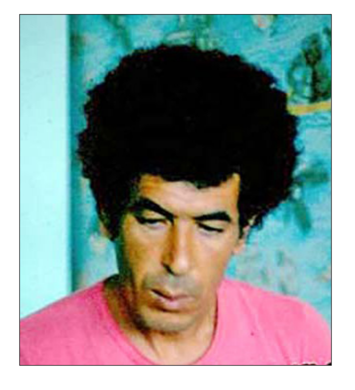
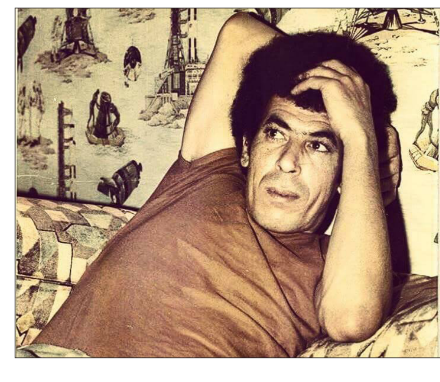
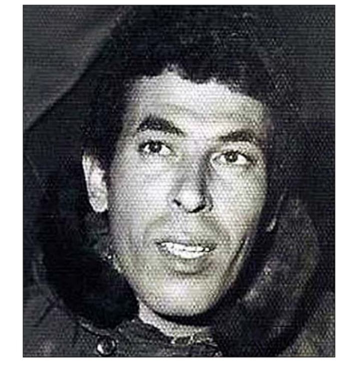
ويقول النيهوم في مقّدمة كتابه «فرسان بلا معركة»:«مجتمعنا مجتمع الرجال، وذلك لا يعني بالطبع أن جميع مواطنينا من الذكور فقط، بل يعني بتفصيل أكثر أنه إذا أُتيحت لك الفرصة ذات مرةٍ لكي تتعرف على ثقافتنا من الداخل فلا بدّ أن تكتشف فوراً أنها غير محايدة تسودها وجهة نظر الرجل وحده، إنّ الفكر الذي ينظر إلى العالم من وجهة نظر الرجل وحده هو فكر متحيّز وغير قادر على التزام الحياد وفق خاصيته، لكنه يرى الأشياء بعين الرجل ويتجاهل عين المرأة والطفل، ويتجاهل أيضاً أن هذا الخطأ بالذات يجعله يبدو من الخارج بمثابة فكرٍ أعور، إنه مُعد لكي يرى نصف الحقيقة فقط».

انتقاد النيهوم لذكورية المجتمع ينطلق من خلاله لتفكيك مسائل جدلية في الواقع على غرار مسألة «الحجاب». حيث يرى أن «حجاب المرأة مثل ختان الذكر، فكرة محلية جدا لم يعرفها أحد سوى سكان الصحراء في العالم القديم. ولم يكن يحتاج إليها أحد سواهم»، ويذهب إلى أنها مجرد إجراء وقائي لمكافحة الأمراض لجأ إليه سكان الصحراء نظرا لندرة الماء.

في العلاقة بين الرجل والمرأة، يرى الصادق النيهوم في كتابه «الحديث عن المرأة والديانات»، أن تحرُّر المرأة من سلطة الرجل بدأ مع عصر الثورة الصناعية في أوربا، حيث استطاعت المرأة في تلك الفترةِ تحقيقَ استقلالها الاقتصادي عن الرجل، لكنه يبدي تخوُّفه الشديد من هذه الخطوة؛ لأنَّه يرى أنَّ المرأة قد أخطأت خطأً فادحًا بالانتفاض على وظيفتها الأساسية وأحدَثت خللًا بالنظام الوظيفي للأنواع، ووقعت في فخ آخر عندما تحققت لها المساواة مع الرجل.

ويرى النيهوم أنّ «مشكلة الحجاب ليس بكونه فكرة يهودية خالصة وإنما في القيمة التي يسعى إليها الفقيه المسلم ومعلمه العبراني من قبله إلى إلباسها للمرأة بوجودها الجسدي والمعنوي، تماماً هذا هو السرُّ الذي يُخفيه الحجاب خلفه فيجعل من المرأة عاراً وجسداً نجساً يجب ستره. على هذا يبدأ مسار تحرير المرأة من فك الرموز والأحجيات التي تحوم حول وجودها لنصل بعد ذاك إلى (المرأة الجديدة) التي يحدثنا عنها المفكر المصري الراحل قاسم أمين».

وفي العلاقة بين الرجل والمرأة، يرى الصادق النيهوم في كتابه «الحديث عن المرأة والديانات»، أن تحرُّر المرأة من سلطة الرجل بدأ مع عصر الثورة الصناعية في أوربا، حيث استطاعت المرأة في تلك الفترةِ تحقيقَ استقلالها الاقتصاديّ عن الرجل، لكنَّه يُبدي تخوُّفه الشديد من هذه الخطوة؛ لأنَّه يرى أنَّ المرأة قد أخطأت خطأً فادحًا بالانتفاضِ


على وظيفتها الأساسية وأحدَثت خللًا بالنظام الوظيفي للأنواع، ووقعت في فخٍ آخر عندما تحققت لها المساواة مع الرجل.

ولذلكَ يرى الصادق النيهوم أنَّ الحلَّ هو أن تلتزمَ المرأة بوظيفتها الأساسيّة لها وهي الإنجاب والتربية، ويمكن أن تكون مدرِّسة أو مربية فهو عمل تربويٌّ، ويمكن أن تعملَ عملًا يدويًا في بيتها بغيةَ تطوير الصناعات اليدوية، ولذلك فإنّه كان يطالب بوضع نظام تعليمي يكرِّس مهمّة المرأة التقليدية وهي الحمل والإنجاب والتربية.

وعن المرأة أيضا يقول النيهوم:»المرأة ليست الجنس وحده كما تريد الحضارة الأوروبية أن تفترض، وليست أيضا الخادمة التي تقوم بطبخ وجبة الأرز في البيت الليبي كما تريد حضارتنا أن تفترض، إنها وجه الحياة الآخر الحافل بكل شيء، الذي تبدو الحياة بدونه مجرد عرض واحد مثل عالم كلي الظلمة، بدون النهار، أو عالم كلي السطوع بدون ليل».

ويتجه الصادق النيهوم الى مسألة التعليم في العالم العربي ويناقش مناهج التعليم التي ينتقدها بشدة كونها تعمل على الحد من استعمال العقل وتمنع التفكير العلمي وتُلزم بالتفسير الذي اشتقه فقهاء دينيون خدمة لسلطة الإقطاع السياسي. ويقول النيهوم «خلال الخمسين عاماً التالية كان نظام التعليم قد أصبح وسيلة شرعية لتسليم ملايين الأطفال العرب في عهدة فقيه جاهل يتولى حشو أدمغتهم بمعلومات موجهة عمداً لشلّ عقل الطفل وتدمير قدراته على التفكير المنطقي».

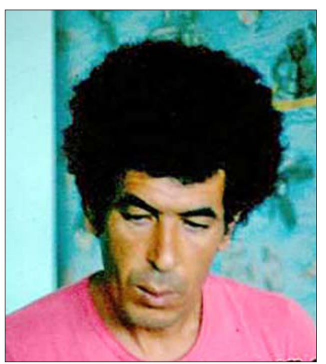
> من الأفكار البارزة التي قال بها النيهوم؛ ربطه ما بين الديمقراطية والنظام الرأسمالي، واعتبر الديمقراطية نتاجاً مرتبطاً تاريخياً بنشوء النظام الاقتصادي للرأسمالية؛ وجاء نتيجة ملدّة لضرورات التجارة وحركة رأس المال، وكذلك اعتبر حرية الإعلام والصحافة والتعددية الحزبية أيضاً من لوازم النظام الرأسمالي ومرتبطة به تاريخيا..

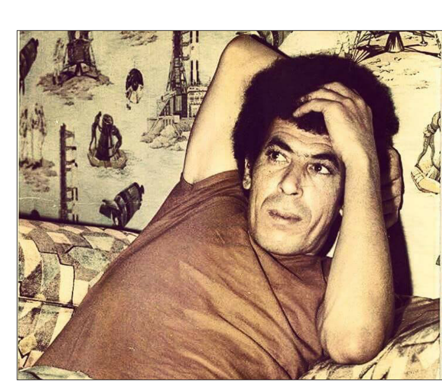
ومن الأفكار البارزة التي قال بها النيهوم؛ ربطه ما بين الديمقراطية والنظام الرأسمالي، واعتبر الديمقراطية نتاجاً مرتبطاً تاريخياً بنشوء النظام الاقتصادي للرأسمالية؛ وجاء نتيجة ملحّة لضرورات التجارة وحركة رأس المال، وكذلك اعتبر حرية الإعلام والصحافة والتعددية الحزبية أيضاً من لوازم النظام الرأسمالي ومرتبطة به تاريخيا.

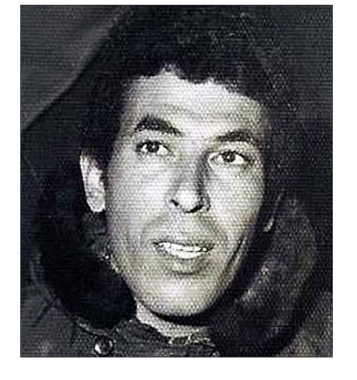
ويخلص النيهوم من ربطه ما بين الديمقراطية والرأسمالية إلى أن الأمم التي لم تتشكل مجتمعاتها وفق النظام الرأسمالي، لا تستطيع تطبيق الديمقراطية، ويفسر ذلك أن النظام الرأسمالي استطاع ضرب الإقطاع وحلّ محلّه وأنشأ علاقات جديدة تقوم على حرية تحرُّك رأس المال الذي يحتاج إلى حرية إعلام وحرية صحافة وحرية تكوين الجمعيات والأحزاب واستقلال القضاء.

أما في المجتمعات المتخلفة والتي لم تنجز المشروع الرأسمالي ولم تكن شريكة فيه ولم تتخلّص من الإقطاع بعد، فيرى النيهوم أن الديمقراطية تمثل عبئاً عليها وزياً غير مناسب لها، والحل لديه هو «الشورى» التي يعرفها النيهوم كمفهوم مختلف عن الديمقراطية، حيث يقول:»إن الشورى مصطلح آخر، من إدارة مختلفة أخرى، لا تقوم على التمثيل النيابي أو الحزبي، بل تقوم على المشاركة الشخصية للمواطن نفسه، في مؤتمر له سلطة أعلى من سلطة الدولة، يرتاده المواطن في موعد محدد، لكي يضمن











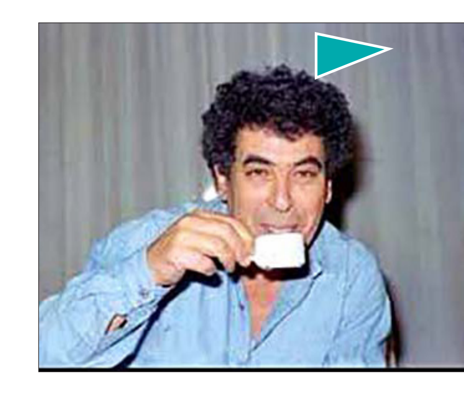
يمكن القول بأن الصادق النيهوم سعى جاهدا للبحث في أكثر الموضوعات حساسية في المجتمع العربي، ولامس بكتاباته وأفكاره وضع العرب الذين يرتبطون ارتباطا وثيقا بالماضي والسائد والعادات في وقت يتمسكون فيه بالحياة العصرية الحديثة، ويشير النيهوم الى ذلك بقوله «التناقض قائما وحادا في صراعهم الحضاري من أجل التقدم وبين تقديسهم لتاريخهم».

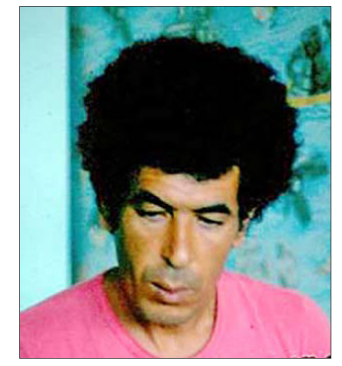


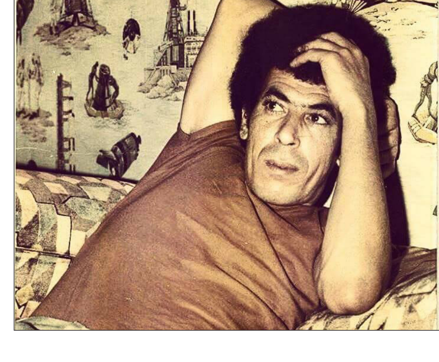
يمكن القول بأن الصادق النيهوم سعى جاهدا للبحث في أكثر الموضوعات حساسية في المجتمع العربي، ولامس بكتاباته وأفكاره وضع العرب الذين يرتبطون ارتباطا وثيقا بالماضي والسائد والعادات في وقت يتمسكون فيه بالحياة العصرية الحديثة، ويشير النيهوم الى ذلك بقوله «التناقض قائما وحادا في صراعهم الحضاري من أجل التقدم وبين تقديسهم لتاريخهم».

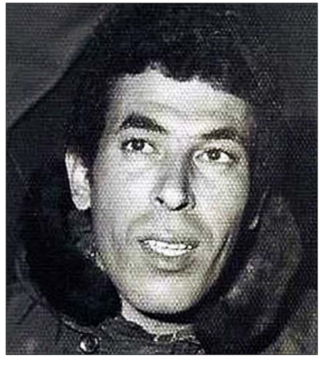
لا شك في أن الصادق النيهوم الذي بحث في التراث ووضعه تحت مجهر النقد والمساءلة ليعيد غربلة هذا التراث وتمحيصه أو حسب تعبيره «تنقية ذلك التراث من أخطائه، وليس حفظه فوق رفوف المكتبة وفرضه على أولادنا الصغار بدافع التعصب وحده»، والذي انتقد سطوة الأفكار السائدة، أراد الخروج بالانسان العربي من مرحلة المتقبل للأفكار الى مرحلة التفكير والابداع.

ولم تقتصر إسهامات الصادق النيهوم على مجال الفكر والأديان، إنَّما لمعَ في عدَّة ميادين أدبيَّة أخرى، فقد كتب في مجال النقد والمقالات -كما سبق- والقصة القصيرة والرواية إلى جانب تجربته في مجال الصحافة والتي نجحَ فيها ومضى فيها حتَّى وفاته عن عمر يناهز 51 عاما في جنيف – سويسرا ليسدل الستار واحدا من أهم الأعلام الليبية والعربية في الأدب والفكر، ومن أعظم من كتب المقالة الفكرية في الصحف العربية في القرن العشرين.











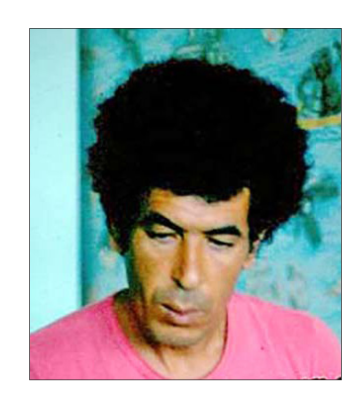
الصادق النيهوم.. قصة مثقف ليبي جامع



خمسة وعشرون عاما مرت على رحيل المفكر الليبي الصادق النيهوم، ومازال اسمه مضيئا في سماء الثقافة العربية والليبية، ومازالت كتبه تحقق مبيعات جيدة وتتجدد طبعاتها حيث تتنافس دور النشر العربية والدوليّة إلى اليوم لتوزيع مؤلفاته التي صدّرت للعرب وللعالم مثقفا استثنائيا وكاتبا بلغ صدى كلماته عواصم كثيرة.



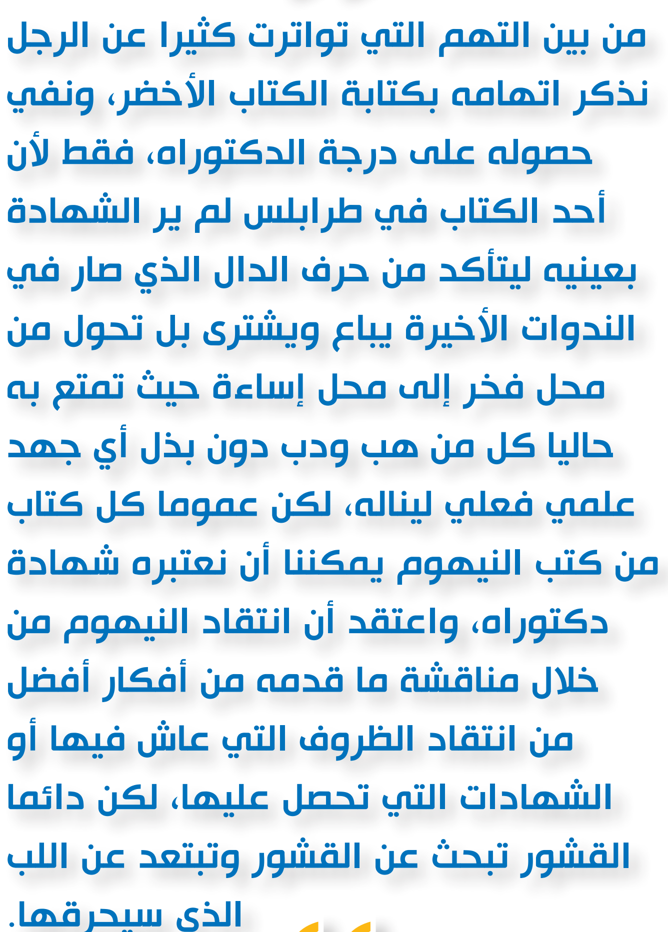




القضايا التي أثارها النيهوم مازالت تثير الجدل بين مؤيديه ومنتقديه وحاسديه أيضا خاصة من بني وطنه الذين يجتهدون بشتى الطرق للتقليل من قيمته ونسب نجاحاته إلى ظروف أخرى غير إبداعه الفكري ومثابرته وجهده، كدعم العقيد القذافي له ماديا وتمويل مشاريعه القافية كالموسوعات التي أصدرها أو البرنامج التلفزيوني الذي كتبه عن الحرب العالمية وبثه التلفزيون بصوت الفنان عبدالفتاح الوسيع أو مجلة الناقد التي ترأس تحريرها لتتصدر كل المجلات والصفحات الثقافية في العالم العربي حيث يبدأ ربيعها الإبداعي بالصادق النيهوم وأنسي الحاج لتحقق نجاحات في كل الوطن العربي ولعلها المجلة الوحيدة التي مازال يتبادلها القراء إلى الآن ليس كمجلة فحسب إنما أيضا ككتاب إبداعي، حيث يجد فيها القارئ مقالات ومقاربات وقصصا لعدة أسماء ناشئة في ذلك الوقت منحها النيهوم الضوء والتشجيع لتكون اليوم من أهم الأسماء الثقافية العربية.

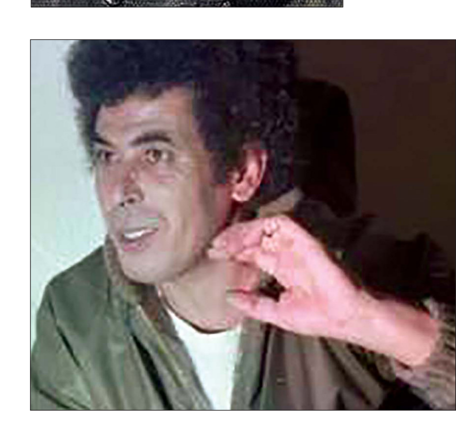
ومن بين التهم التي تواترت كثيرا عن الرجل نذكر اتهامه بكتابة الكتاب الأخضر، ونفي حصوله على درجة الدكتوراه، فقط لأن أحد الكتاب في طرابلس لم ير الشهادة بعينيه ليتأكد من حرف الدال الذي صار في الندوات الأخيرة يباع ويشترى بل تحول من محل فخر إلى محل إساءة حيث تمتع به حاليا كل من هب ودب دون بذل أي جهد علمي فعلي ليناله، لكن عموما كل كتاب من كتب النيهوم يمكننا أن نعتبره شهادة دكتوراه، واعتقد أن انتقاد النيهوم من خلال مناقشة ما قدمه من أفكار أفضل من انتقاد الظروف التي عاش فيها أو الشهادات التي تحصل عليها، لكن دائما القشور تبحث عن القشور وتبتعد عن اللب الذي سيحرقها.



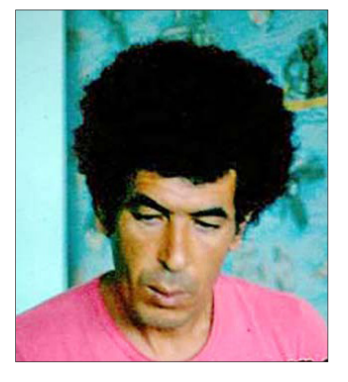


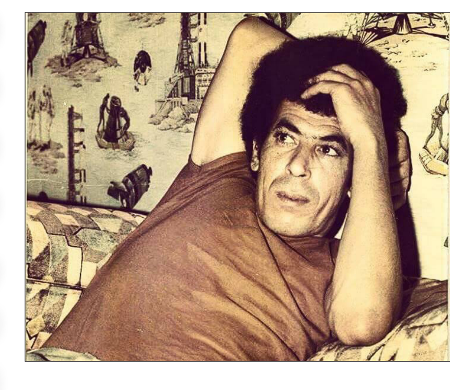
من بين التهم التي تواترت كثيرا عن الرجل نذكر اتهامه بكتابة الكتاب الأخضر، ونفي حصوله على درجة الدكتوراه، فقط لأن أحد الكتاب في طرابلس لم ير الشهادة بعينيه ليتأكد من حرف الدال الذي صار في الندوات الأخيرة يباع ويشترى بل تحول من محل فخر إلى محل إساءة حيث تمتع به حاليا كل من هب ودب دون بذل أي جهد علمي فعلي ليناله، لكن عموما كل كتاب من كتب النيهوم يمكننا أن نعتبره شهادة دكتوراه، واعتقد أن انتقاد النيهوم من خلال مناقشة ما قدمه من أفكار أفضل من انتقاد الظروف التي عاش فيها أو الشهادات التي تحصل عليها، لكن دائما القشور تبحث عن القشور وتبتعد عن اللب الذي سيحرقها.

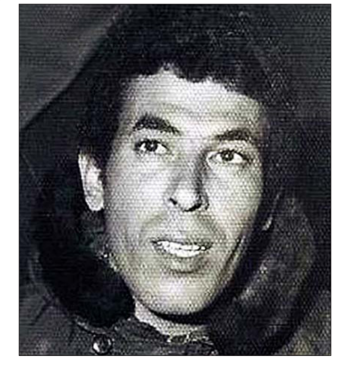
حقيقة لم أقرأ النيهوم بشكل جيد أو التقيه شخصيا، حيث بدأت اهتماماتي بالأدب بعد رحيله بخمس سنوات فقرأت ما وجدت من أعداد مجلة الناقد ثم قرأت كتبه «فرسان بلا معركة» و«تحية طيبة وبعد» و«القرود» و«من مكة إلى هنا» وكتابا آخر به حوار معه أجراه الكاتب رضوان بوشويشة والروائي ابراهيم الكوني والشاعرة فاطمة محمود ورئيس تحرير الملحق الثقافي الأستاذ عبدالرحمن شلقم وكان بوشويشة يحاصر النيهوم في زوايا ضيقة ينقذه منها عادة ابراهيم الكوني وعبدالرحمن شلقم وأخذت فكرة جيدة عنه وأعجبني أسلوبه في الكتابة وعباراته الرشيقة ذات الإيقاع المتوازن ولكن انزعجت بعض الشيء من بعض الكتاب الليبيين الذين يدافعون عن النيهوم بتطرف ولا يقبلون انتقاده وكأنه نادي كروي يشجعونه بتعصب حيث تشعر وأنت تناقشهم أنه ليس هناك أي كاتب في ليبيا أو في الوطن العربي أو العالم سوى النيهوم وتقول لهم أن الثقافة بحر ولا يمن اختزالها في كاتب بعينه مهما كانت













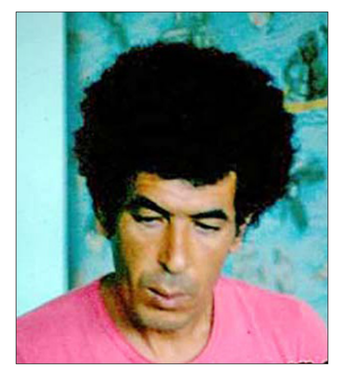
إمكانياته الفنية في عالم الكتابة. يقولون لك أنت منزعج من الرجل ولا تحبه.

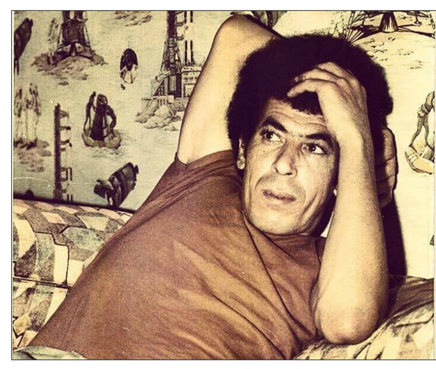
ذات مرة كنت جالسا في مقهى بطرابلس مطل على ميدان الشهداء، أشرب المكياطة وأتأمل الحياة المارة أمامي. كان الوقت بعد المغرب، وجاء كاتب من بنغازي، كان يكتب في جريدة الحقيقة طلب قهوة عربية وأشعل «سبسي مالبورو» ورأى لدي أحد الأعداد القديمة لمجلة الناقد، اشتريته من بائع كتب قديمة لديه فرشة كتب تحت مبنى بنك مطل على الساحة. قال لي صاحبي إن هذه المجلة أسسها النيهوم وجمع فيها كل الكتاب العرب الكبار، كان هو يكتب افتتاحيتها وبها مقالات كلها جمعت فيها كتبه «الإسلام في الأسر» و«إسلام ضد الإسلام» وغيرهما. قلت له صحيح. بعد ذلك جاء سؤاله المهم الذي تسمعه دائما من كل أنصار النيهوم آه ما رأيك فيه، قلت له كويس، وهنا تقوم القيامة ويضرب الطاولة بيده لتتناثر القهوة على الكتب، ويبدأ في الصراخ، «كيف اكويس بس، شنو كلمة كويس حافة، النيهوم عبقري النيهوم ممتاز النيهوم مفكر كبير»، أنتم الجيل الجديد لا تحبون النيهوم لا تعرفون قيمته. جاء نادل المقهى وتجمع حولنا الناس، وأنا أضحك ، وضحكي يرفع من عصبيته أكثر، ولا حل هنا إلا أن أغادر المقهى. حاسبت النادل وقلت لصاحبي الكاتب والصحفي المخضرم، نلتقي ليلا في الفندق والآن إلى اللقاء. توفي صاحبي مؤخرا وكان سعيدا لأنه سيدفن في مقبرة الهواري حيث يرقد النيهوم. قبل ذلك كانت مقبرة الهواري مقفلة لوقوعها في موقع اشتباكات، وللأمانة هو راض عني لأني أكملت قراءة كل كتب النيهوم بالفعل التي كتبها أو التي كتبت عنه وواصلت قراءة ما يكتب عنه آخرها «كتاب الدلال». أتذكر أني التقيته ذات ضحى وهو بكامل أناقته في مكتب المترجم والكاتب الأستاذ رمضان جربوع وقلت له قرأت النيهوم وهو كاتب ممتاز فابتسم وقال لي «أيوه هكي احترم الأساتذة»، وأضاف اليوم سأستضيفك للغداء عندي، وبالفعل حصر ذلك. وفي بيته عرض عليّ الكثير من كتب النيهوم في طبعاتها الأولى وأيضا صور كثيرة وأعداد من جريدة الحقيقة التي نشر فيها النيهوم مقالاته وكانت لا تبقى في المكتبات، فالقراء يصنعون طابورا أمام المكتبة لاقتنائها وبعد ذلك النسخة الواحدة من الجريدة تنتقل من يد إلى أخرى للقراءة وليس للف السندوتشات أو مسح السيارات في ورش السمكرة.

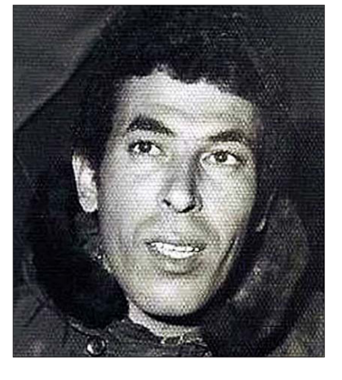
عموما من الخسائر التي منيت بها ليبيا هي رحيل أبرز كتابها ومفكريها المؤثرين باكرا. لم يواصلوا الحياة ليحضروا هذا الربيع العبثي الذي أحرق الأخضر واليابس، الآن يوجد مفكرون لكنهم غير مؤثرين في الشارع، أفكارهم تظل داخل الكتب أو داخل الندوات التي ينشّطونها، لم يكتبوا شيئا يمكنه أن يحرك الحياة ويجعلها تنتفض لوقف هذا العبث. الكلمة التي يمكنها أن تهزم الرصاصة مازالت عالقة في الحلق، لا أحد أخرجها، ربما لأنها لم تنضج بعد أو ربما لأنها ليست من القلب فعلا.

وعموما من الخسائر التي منيت بها ليبيا هي رحيل أبرز كتابها ومفكريها المؤثرين باكرا. لم يواصلوا الحياة ليحضروا هذا الربيع العبثي الذي أحرق الأخضر واليابس، الآن يوجد مفكرون لكنهم غير مؤثرين في الشارع، أفكارهم تظل داخل الكتب أو داخل الندوات التي ينشّطونها، لم يكتبوا شيئا يمكنه أن يحرك الحياة ويجعلها تنتفض لوقف هذا العبث. الكلمة التي يمكنها أن تهزم الرصاصة مازالت عالقة في الحلق، لا أحد أخرجها، ربما لأنها لم تنضج بعد أو ربما لأنها ليست من القلب فعلا.











في الذكرى العشرين لوفاة النيهوم كتبت في إحدى مواقع الانترنيت هذه الجمل التي تتحدث عن غيابه في وقت تحتاجه فيه ليبيا كثيرا، غياب ليس منه لكنه من ربه، غياب لا راد له، لكن النيهوم رحل جسدا وترك كلماته التي يمكن لمن يتعاطى معها ويتفهمها أن تنقذ ما يمكن إنقاذه أذكر أني كتبت أن «الصادق النيهوم كاتب مؤثر جدا في الوجدان الليبي، ولو كان حياً، كان يمكنه أن يفعل أي شيء، يمكنه أن يقود الشعب، خاصة جيل الشباب إلى واحة السلام. يملك حضورا (كاريزما) ربما تكون قد ساعدته بشكل أو بآخر في نجاحه ككاتب تنويري سجالي يشعل الحرائق ويفجر القضايا والمسائل المخلخلة للثوابت، يمكنه أن يلقي خطابا حتى وهو ليس رئيساً. لا شك أنه سيوقف مثل هذا الدمار، سينصت إليه المتحاربون، وسيتوقفون عن قتل ليبيا فيهم بكل هذه الضراوة، سيحدثهم عن تاريخ ليبيا القديم، وسيتحدث إلى الجامع في يوم الجمعة، سيلتف الجميع حوله، خاصة جيل الشباب وقود المعارك الحالية.»

”
يملك النيهوم حضورا (كاريزما) ربما تكون قد ساعدته بشكل أو بآخر في نجاحه ككاتب تنويري سجالي يشعل الحرائق ويفجر القضايا والمسائل المخلخلة للثوابت، يمكنه أن يلقي خطابا حتى وهو ليس رئيساً. لا شك أنه سيوقف مثل هذا الدمار، سينصت إليه المتحاربون، وسيتوقفون عن قتل ليبيا فيهم بكل هذه الضراوة، سيحدثهم عن تاريخ ليبيا القديم، وسيتحدث إلى الجامع في يوم الجمعة، سيلتف الجميع حوله، خاصة جيل الشباب وقود المعارك الحالية».
“



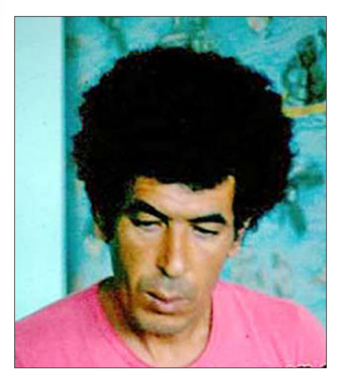
لو كان النيهوم حيا لتمكن من حل المشكلة، ولقفز إلى السلطة التي يسعى إليها كما ذكر الروائي إبراهيم الكوني في سيرته الذاتية «عدوس السُرى»، بطريقة ديمقراطية سهلة أريحية. يقول الكوني في سيرته: «قال لي يوما إن غايته دوما كانت السلطة، كل ما هنالك أن العسكر ذهبوا إليها من أقصر طريق، وخسرها هو لأنه سعى إليها من أبعد طريق!».







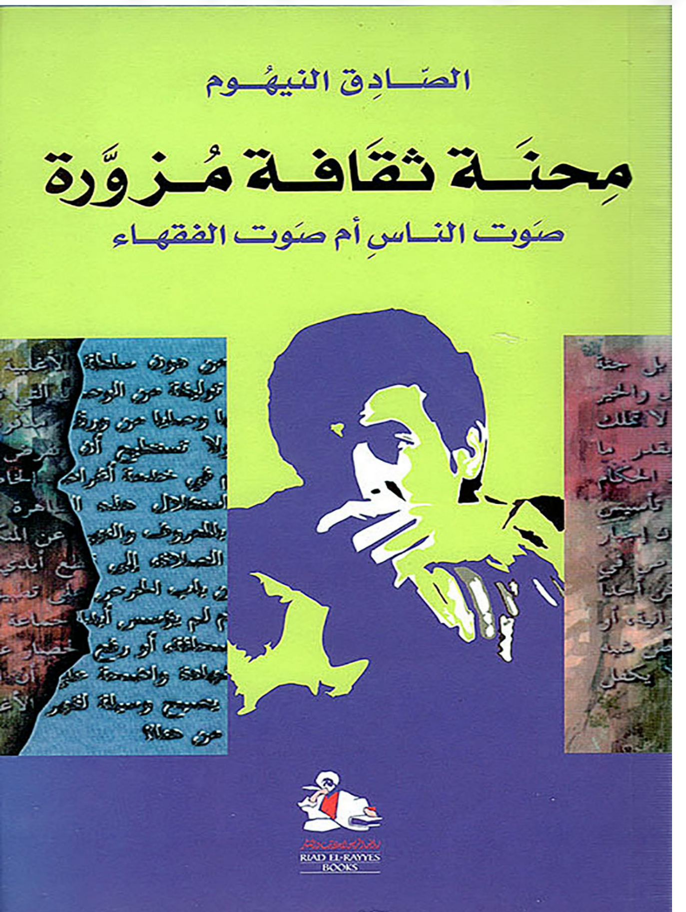
الصادق النيهوم... مجدد واجه بالعقل إسلام الفقهاء

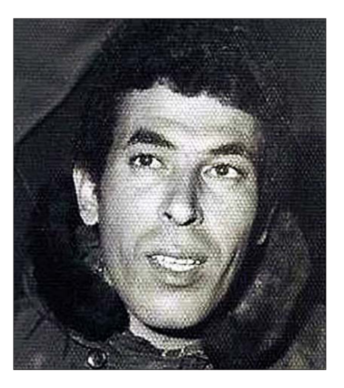


الشريف الزيتوني



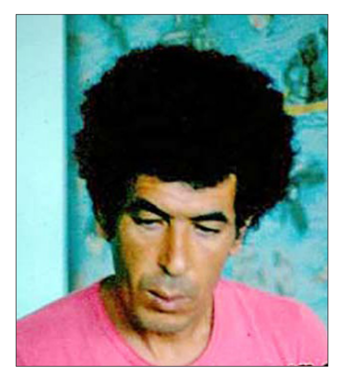
الحديث عن الصادق النيهوم في ليبيا، هو حديث عن حالة فريدة. يقول بعض المثقفين إنك عندما تتحدّث عن الرجل وكأنك تتحدّث عن ظاهرة سمّيت باسمه. في فترة من الفترات كان بالإمكان الحديث عن مدرسة «الفكر النيهومي»، هي مدرسة الرفض والتمرّد على المسلمات. النيهوم هو كاتب ومفكر استثنائي في الثقافة الليبية، آمن بالإنسان بعيدا عن الحدود معتبرا أن العقل سيّد الأشياء وأن الإنسان لا يكسب قيمته بانتمائه العرقي أو الجغرافي بل بما يقدّمه للناس. هو حالة فريدة ليس في ليبيا فحسب بل في كامل المنطقة العربية والعالم، سطع نجمه في ستينات القرن الماضي من خلال أسلوبه الخاص في الكتابة وخروجه عن قوالب المألوف في المجتمع الليبي.

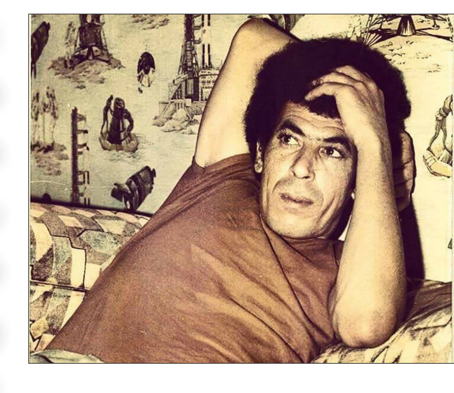


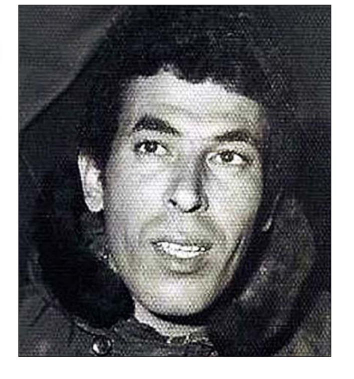














رحلة النيهوم مع الثقافة والفكر انطلقت من بنغازي، ففيها ولد ودرس، وهي المكان الذي حلّق منه نحو عوالم رأى أنها قادرة على استيعاب مخزونه الفنّي في الكتابة. في عوالم الغربة الكثيرة عاش مخاضا فكريا، يحمل بذوره من أيامه الأولى في بلاده، تبنى فيه فكرة اليسار بما هو مثل عليا في الإنصاف والتمرّد على سلطة المال، وفكرة التديّن بما هي حالة وعي تعتمد على العقل بعيدا عن القوالب المغلقة للفقهاء، وأيضا فكرة المرأة بما هي كيان حر لا يجب أن يكون خاضعا لسلطة الرجل والمجتمع.

الصادق النيهوم رجل بلا أيديولوجيا في السياسة، لكنه مثقف حامل لمشروع فكري مخالف. قد يكون يساري في المطلق، لكنه يفكّر خارج المدارس التقليدية. حتى عندما يتحدّث عن كارل ماركس بإعجاب كان يعتبر أن ما جاء به هو من صميم الإسلام. في كتاب «محنة ثقافة مزورة.. صوت الناس ام صوت الفقهاء»، طوّع النيهوم المقولات



الماركسية تطويعا كاملا داخل الأفق الإسلامي، ربّما يكون هنا قد تعسّف قليلا على الفيلسوف الألماني، لكنه في كل الحالات قدّم ما يريد أن يبلغه في علاقة بالفكر اليساري داخل المنظومة الإسلاميّة. دافع النيهوم في كتابه بكل قوة عن ماركس وعن فكرة اليسار، منتقدا بحدّة المنظومات الفقهية الإسلامية التي تلقت صورة اليسار وفق رؤية رأسمالية معادية. يقول في كتابه إن «ثقافتنا العربية المعاصرة لا تعرف كارل ماركس، تعرف ما سمعته عنه من أعدائه الرأسماليين وحدهم. وهم طرف منحاز في أصل القضية». وقد نجحت المنظومات الفقهية الإسلامية في ترسيخ فكرة العداء للماركسيّة بزعم الإلحاد ورفض الدّين، وهي

رحلة النيهوم مع الثقافة والفكر انطلقت من بنغازي، ففيها ولد ودرس، وهي المكان الذي حلّق منه نحو عوالم رأى أنها قادرة على استيعاب مخزونه الفنّي في الكتابة. في عوالم الغربة الكثيرة عاش مخاضا فكريا، يحمل بذوره من أيامه الأولى في بلاده، تبنى فيه فكرة اليسار بما مثل عليا في الإنصاف والتمرّد على سلطة المال، وفكرة التديّن بما هي حالة وعي تعتمد على العقل بعيدا عن القوالب المغلقة للفقهاء، وأيضا فكرة المرأة بما هي كيان حر لا يجب أن يكون خاضعا لسلطة الرجل والمجتمع.

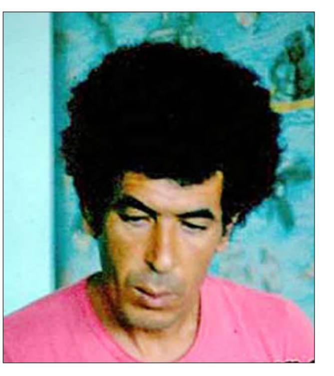


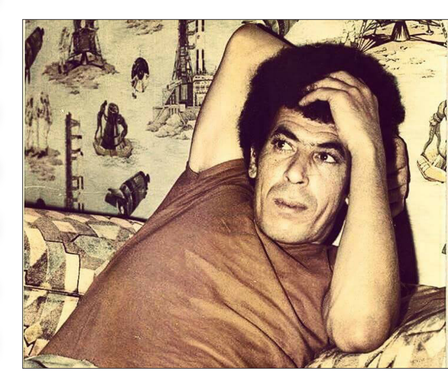
تهم يدحضها النيهوم ويرى أن الإسلام جوهر رئيسي فيها بما هي العدل وتخليص الإنسان من العبوديّة.

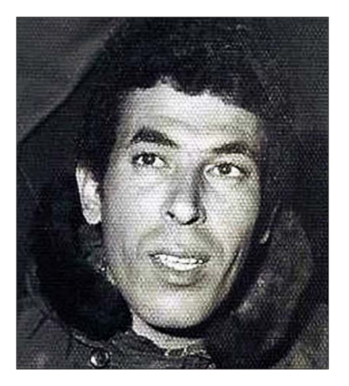
ما جاء في كتاب «محنة ثقافة مزورة» هو نوع جديد من التفسير القرآني وجرأة كبيرة على المقولات الإسلامية المتوارثة، كما أنه نوع من الحرب الخفيّة ضد مؤسسات دينية مترهّلة خاضعة لا تملك تحصينات فكرية لنفسها تجعلها تنافس الأمم الأخرى فيما تنتجه. الواقع أن النيهوم تبنى موقفا رافضا من رجال الدين في مرحلة مبكرة، ففي تسجيل قديم نشره تلفزيون الغد في برنامج عن حياة الرجل، قال إن فهم الدين يجب أن يكون عبر اعتباره وسيلة وليس غاية في ذاته، وهو عمل ومبدأ ومنهج وموقف عقلي ليس تجاه القضايا الدينية فحسب بل تجاه كل القضايا التي تهم الناس. كأننا بالرجل بدأ صراعه مع الإسلاميين مبكرا.

الأمر ذاته تقريبا، تناوله في كتابه «إسلام ضد الإسلام»، الذي انتقد فيه الأحزاب الدينية عندما قال إن «أقصر طريق يسلكه الحزب السياسي لكسب المعركة على











السلطة، هي أن يلبس جبة الدين، ويطالب الدولة بتطبيق قوانين الشريعة. لكن مشكلة هذا الطريق القصير، أن قوانين الشريعة بالذات، لا تطبقها الدولة بل يطبقها المواطن. فإذا مرّت المغالطة، ونجحت الأحزاب الدينية في مسعاها، وتمّ تطبيق قوانين الشريعة في دول الوطن العربي، حتى صار لكل حكومة بوابة رسمية على الجنة، فإن المواطن العربي شخصياً، سوف لن يشارك في هذا العرس، ولن يؤدي فيه دوراً نافعاً، سوى أن يحمل الطبل والحطب. إنه لا يستطيع أن يطبق الشريعة حتى بمعونة من فقهاء الحزب».

في كتاب «الإسلام في الأسر» كانت هناك أيضا جرأة واضحة. لم يكن أحد يتحدّث عن القواعد الأساسية في الإسلام باعتباره لدى الغلبية من المسلمات. العقل الإسلامي ترسخت عنده أن قواعد الإسلام خمسٌ، لكن النيهوم كان له رأي آخر. المفكّر الليبي اعتبر أن هذه المسلّمة لا ثبوت لها في الإسلام، باعتبارها أهملت جانبا أساسيا في تنظيم حياة النّاس وهو الحكم، فغياب الحديث عن الحكم في تلك القواعد يعتبر ثغرة فقهيّة قد تكون فرضتها التحولات السياسية في فترة الحكم الأموي.



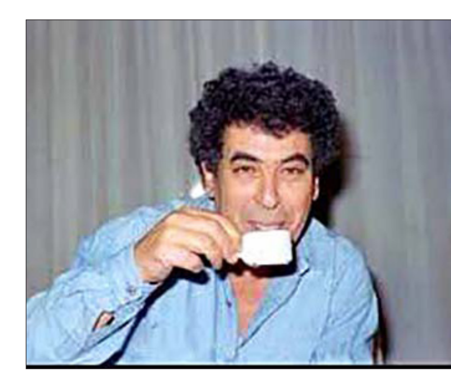
الحديث عن النهيوم، هو حديث عن مثقف لم ينل الحظوة التي تليق به في السياق العربي. لكنه في كل الأحوال لم يكن باحثا عن شهرة أو مجد. كان متمردا في فكره متجرئا على تقاليد رأى إنها لم تعد تصلح لمجتمع عربي مكبّل، مستحضرا في ذهنه ما بلغته الحضارة الغربيّة في مختلف العلوم رغم إيمانه بأن أي إصلاح مجتمعي لا يمكن أن يكون إلا من داخله وهذا ما كان يدعو إليه الليبيين والعرب عموما.

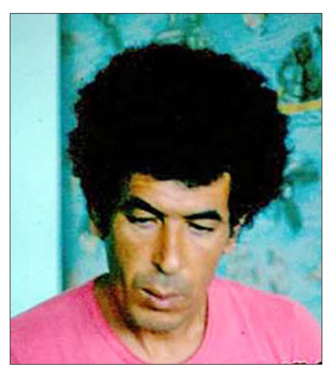


من المؤكّد أن دراسته للفلسفة والأديان المقارنة، واطلاعه على الثقافات الغربيّة التي بلغت أشواطا كبيرة من التقدّم، ساهما في صناعة مفكّر متمكّن ومجدد متمرّد يرى أن الكون أفقه كبير وواسع وليس مخلوقا فقط من أجل العرب أو المسلمين، مؤكّدا أن العقل هو ميزان السير نحو المستقبل أو كما قال في كتابه «نقاش» إن العقل «حياة أخرى. حياة أرقى من مرحلة الحياة الدنيا المقامة على حلول الغرائز. إنه مرحلة أعلى وأكثر فعالية» في حياة الناس.

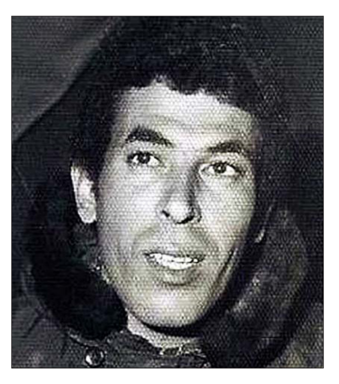
الإسلام الذي آمن به النيهوم هو إسلام آخر مختلف غير رافض للتطوّر وغير منضبط لمكبلات فقهيّة فرضت عليه نوعا من الأسر وجعلته رهينا لمفاهيم خاطئة خلفت مؤسسات متداخلة تمارس الدكتاتورية في مختلف مظاهرها السياسيّة والدينية وفرضت علي الإنسان المسلم نوعا من العبودية التي لم يتخلّص منها إلى اليوم. هو مشروع تجرأ على الإصداح به رغم أنه كان يسير خارج السياق الإسلامي العام الذي تعوّد لسنوات على تقاليد النقل الرافضة للاجتهاد. وسدد مئات الأسئلة العميقة والقاسية لهذا التراث.

الحديث عن النهيوم، هو حديث عن مثقف لم ينل الحظوة التي تليق به في السياق العربي. لكنه في كل الأحوال لم يكن باحثا عن شهرة أو مجد. كان متمردا في فكره متجرئا على تقاليد رأى إنها لم تعد تصلح لمجتمع عربي مكبّل، مستحضرا في ذهنه ما بلغته الحضارة الغربيّة في مختلف العلوم رغم إيمانه بأن أي إصلاح مجتمعي لا يمكن أن يكون إلا من داخله وهذا ما كان يدعو إليه الليبيين والعرب عموما.









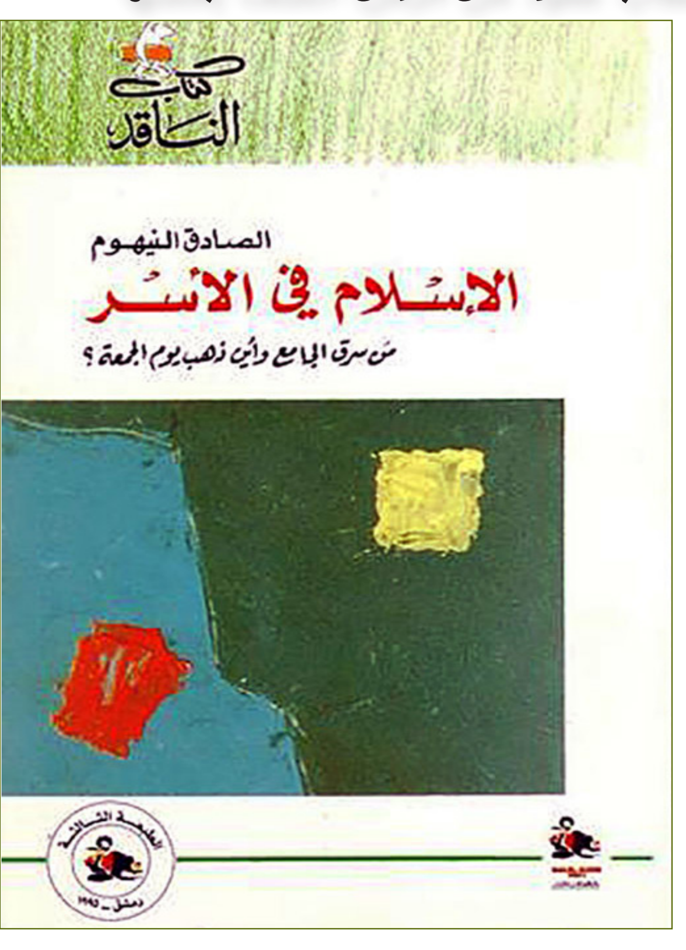


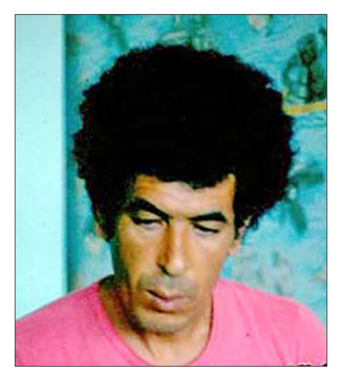
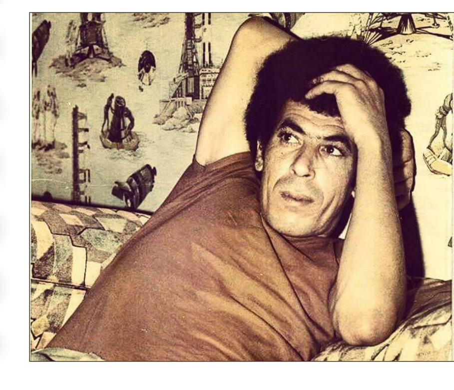
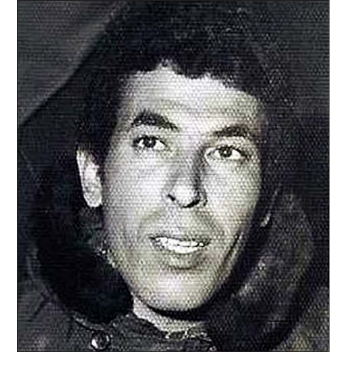


النيهوم: العقل الخلاق في بيئة سكولاستيكية

أ. عون الله سيف منصور

حاول أحد المدونين الليبيين أن يقنعنا بأن بروز»الظاهرة النيهومية« في ستينات القرن المنصرم، كان استجابة لجملة من التفاعلات المجتمعية التي حدثت في أعقاب عقود من الزمن؛ اتصف بعضها بالجمود والركود، وبعضها الآخر بالتحولات التاريخية العنيفة. كما كان استجابة أيضاً لجملة أسئلة ملحة متعلقة بالهوية والمستقبل والتقدم تناولتها النخب الليبية آنذاك. والواقع أن هذا الرأي قد لا يكون محل إجماع، وربما لا تكون له علاقة بالحقيقة، إنما هو محاولة تفسيرية استرجاعية لأحداث الماضي، ومعالجتها بوعي الحاضر.




ففي الستينيات من القرن الماضي عندما بدأ النيهوم مسيرته الإبداعية، لم تكن أسئلة الهوية مطروحة، بل على العكس تماماً. فقد كانت المسألة محسومة جماهيرياً، أكثر مما هي عليه اليوم، وذلك بتأثير المد القومي العروبي الناصري الذي عم المنطقة بأكملها، وليبيا الجارة الأقرب، لم تكن استثناء. إلا إذا كان قصد المدون ما كان يدور من حوارات معزولة بين مجموعة من أوائل المؤدلجين بتأثير عناصر إخوانية كانت قد فرت من مصر ووجدت في ليبيا ملاذاً وملجأ آمناً. ولا يمكن الحديث كذلك عن وجود نخب سياسية بالمعنى العلمي للمصطلح. لكن يمكن الحديث عن مجموعات محدودة من المثقفين الذين انفتحوا على أيدلوجيات يسارية ويمينية. ولكن بقدر ما كانت أعداد هؤلاء المثقفين محدودة ومحصورة في بعض المدن. بقدر ما كانت تفصلهم هوة سحيقة عن القواعد الجماهيرية. فكيف يّتصور لشعب كان يرزح تحت نير الجهل والأمية والتخلف والعبودية، وينشب البؤس والفقر والمرض أظفاره في جسده، أن يهتم بأكثر من البحث عن لقمة عيشه والانشغال بشؤونه الصغيرة. إلا إذا كان الهدف الذي قصد إليه المدون هو تلميع صورة النظام السياسي الذي كان قائماً.



لا يتصور مطلقاً أن تكون الظاهرة النيهومية انعكاساً لواقع الحال، بقدر ما كانت انفكاكاً عنه ورفضاً له وتمرداً عليه. إنها صرخة احتجاج على الإقطاع السياسي والاستبداد الديني، وتحد لمركبات الجهوية والقبلية والضحالة الثقافية. وبقدر تجذر هذه الأمراض في بنية الجسد المجتمعي، جاءت قوة الصرخة ووقعها.

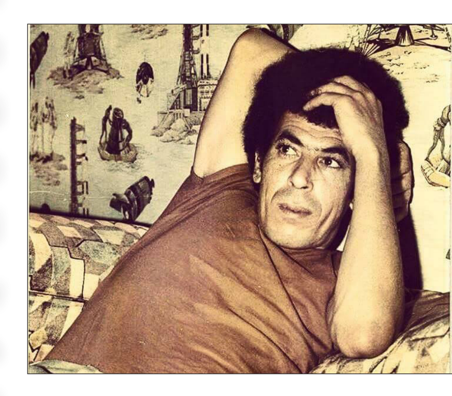


إذن لا يتصور مطلقاً أن تكون الظاهرة النيهومية انعكاساً لواقع الحال، بقدر ما كانت انفكاكاً عنه ورفضاً له وتمرداً عليه. إنها صرخة احتجاج على الإقطاع السياسي والاستبداد الديني، وتحد لمركبات الجهوية والقبلية والضحالة الثقافية. وبقدر تجذر هذه الأمراض في بنية الجسد المجتمعي، جاءت قوة الصرخة ووقعها. وإذا ما استعرنا مصطلحات نظرية التحليل الفاعلي التي بلورها الأستاذ الشيخ محمد الشيخ، دون التقيد الصارم بمفاهيمها الدقيقة، فإن بنية العقل التناسلي القاعدي، هي البنية التي سادت وهيمنت على العقل في ليبيا آنذالك. وهي بنية «تعطي الأهميّة والأولويّة للبقاء عبر التناسل، فيعي الإنسان ذاته كائنا وظيفته التناسل». وتسود هذه البنية، «حينما تكون الوسيلة الوحيدة المتاحة بغية التغلب على ارتفاع معدلات الوفيات هي زيادة معدلات المواليد، وحينما تكون القوة العضلية للرجال والنساء هي مصدر الأمن الاجتماعي والغذائي». مع وجود هامش لا بأس به لبنية العقل البرجوازي (المادي) ، التي تعطي الأولويّة لإنتاج واستحواذ الخيرات الماديّة، ومن ثمّ يعي الإنسان ذاته كائنا ماديّا واقتصاديّا. وتسود هذه البنية المادية حينما توفر البنية التناسلية البشر كمياً فينتج تحدي وهاجس جديد هو توفير المأكل والمأوى لملايين الأفواه الفاغرة.

بتصريف هذا الكلام في سوق الفكر والثقافة، فإن «لكل بنية عقل مرجعيتها المعرفية والقيمية ومفهومها للذات التي تحفز لأجل تحقيق مشروع البنية». وفي هذا السياق تعد بنيتا العقل التناسلي، والعقل البرجوازي من أفقر البنيات من الناحيتين الفكرية والثقافية، ومن أكثر البنى تدن للفاعليّة، لأنّ «برامجهما للعطاء مغلقة، وتحصران الحب

والعطاء في إطار الفرد وأسرته وربما عشيرته أو طائفته» على أكثر تقدير. وانعكاس هذا هو إنتاجهما لمنهج التلقين والحشو والخضوع والتسليم بكل ما يقال. وهذا ما أنتج بدوره عقلية سكولاستيكية جامدة متقوقعة، يقتصر فعلها الفكري والإبداعي على الحفظ والاستذكار ومراكمة الشروح على الشروح والحواشي على الحواشي. وهذا ما أدى إلى إنتاج مجتمع أبوي بطرياركي صارم التقاليد لا يسمح بالتفلت من أعرافه وقوانينه. وهو ما حرم الخروج على المألوف أو ممارسة النقد والقراءة التفكيكية للتابوهات الدينية والاجتماعية، واعتبره في منزلة المحرم والمحظور. وبالتالي اتسمت الحياة الفكرية والثقافية بالتسطيح والفقر المدقع والتصحر.

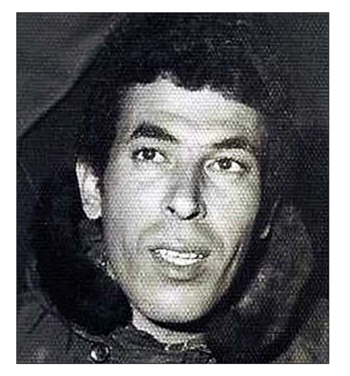
ومن بين ركام هاتين البنيتين العقليتين البائستين انبثقت عقلية النيهوم الإبداعية، بما يشبه المعجزة أو الطفرة. فاستطاع النيهوم أن يفلت من قيود بنيتى العقل التناسلي والبرجوازي المادي، إلى بنية العقل الخلاق المبدع. وفي هذا الإطار، كتب منصور بوشناف قائلاً، كان «النيهوم ابن مجتمع يقبع في زمن الخرافة، وكان الفقيه شبه الأمي يقود عقل ذلك المجتمع». وفي داخل هذا الوسط المغلق المنغلق، تشكلت عقليته الفاعلة الخلاقة، وهي بنية «يعي الإنسان من خلالها ذاته كائنا خلاقاً وظيفته الإنتاج والإثراء الشامل للحياة». ولذلك فهي «بنية مفتوحة مرتقية الفاعليّة».. وسنتناول فيما يلي بعضاً من المواضيع والقضايا التي تناولها للتدليل على أن فكر النيهوم كان سابقاً لعصره. فقد خاض في مسائل وقضايا كانت من المسكوت عنها واللا مفكر فيها، فكأنما قذف جملة من الأحجار في بركة الفكر العربي الراكدة. ولقد كان لهذه الخطوة ما ورائها فقد حفزت أجيالاً من الباحثين على المستوى العربي للخوض في مسألة الحداثة وإعادة قراءة التراث وتخليصه من الأوهام والتشوهات والخرافات.



”

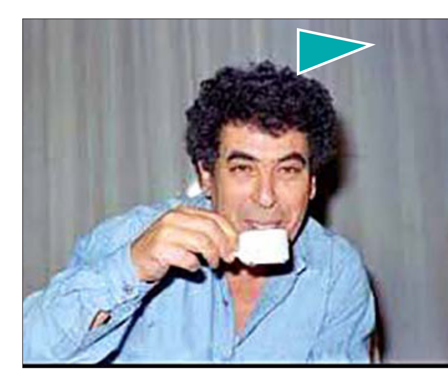
في كتاب «الإسلام في الأسر» كانت هناك أيضا جرأة واضحة. لم يكن أحد يتحدّث عن القواعد الأساسية في الإسلام باعتباره لدى الغلبية من المسلمات. العقل الإسلامي ترسخت عنده أن قواعد الإسلام خمس، لكن النيهوم كان له رأي آخر. المفكّر الليبي اعتبر أن هذه المسلّمة لا ثبوت لها في الإسلام، باعتبارها أهملت جانبا أساسيا في تنظيم حياة النّاس وهو الحكم، فغياب الحديث عن الحكم في تلك القواعد يعتبر ثغرة فقهيّة قد تكون فرضتها التحولات السياسية في فترة الحكم الأموي.

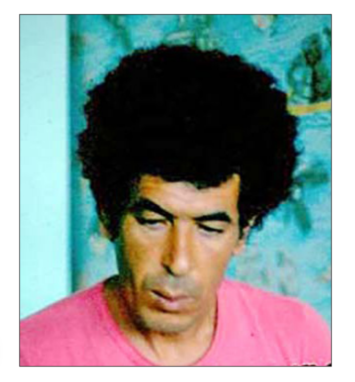


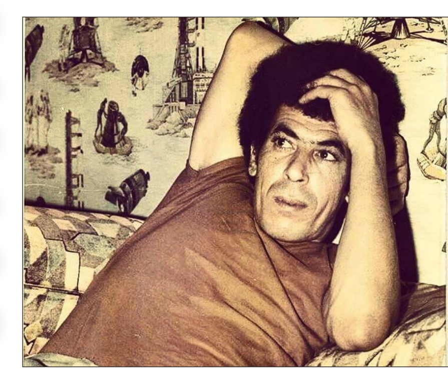


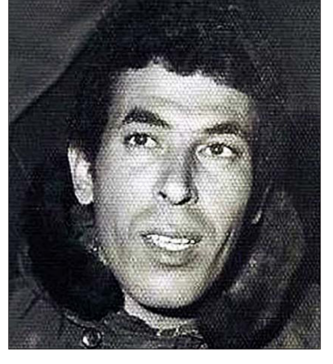
لقد أدرك النيهوم مبكراً أهمية الدين في حياة الشعوب، فهو المصدر الذي يمد الأمة بالقوة المعنوية الهائلة التي تحفز طاقاتها وتطلق العنان لقواها الإبداعية الهائلة. لكنه وقف على حقيقة أن هذا المصدر ظل معطلاً لقرون بقرار سياسي، أداته التنفيذية رجال الدين الذين خلعوا القداسة على أنفسهم لتسهيل أداء المهمة التضليلية، واستطاع الفقهاء أن يجيروا الدين لخدمة الحاكم واحتكار السلطة، فقدموه في إطار رجعي ودروشي أحياناً، وأخرجوه عن حقيقة غاياته. وبدلاً من أن يكون وسيلة للانعتاق، حولوه إلى قيود وأداة للانغلاق. فأستهدف مشروع النيهوم التنويري أول ما استهدف تفكيك طلاسم الخطاب الديني ونزع القداسة عن رجال الدين، وأعادتها للنص المقدس، لا













للمتطفلين عليه. لكن التنوير النيهومي، وعلى عكس المشاريع اللاحقة لنقد الخطاب الديني التي اتكأت على رؤية ومنهجية من خارج منظومتة الفكرية. يستولد مرجعيته من داخل بنية الفكر الديني الإسلامي، ولذلك فهو يرفض مسألة توقف الاجتهاد الفقهي ويدعو لانفتاحها على تطورات الحياة السياسية والاجتماعية.

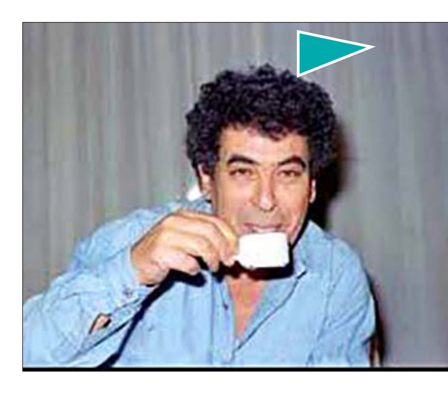
ولما كان الدين صالحاً لكل زمان ومكان، فإنه يتطلب ديناميكية تفسيرية وتأويلية مستمرة تتعامل مع المستجد المتغير في ضوء قواعد الثابت الراسخ. ولذلك جاءت تساؤلاته وأبحاثه وعناوينه متماهية مع هذا الفهم. فنراه يقر بأن «الإسلام في الأسر»؛ أسر الفقهاء والفهم التقليدي. ويقرر أن هناك إسلاماً أوجده الفقهاء لا يمت إلى الإسلام الذي أنزله الله في كتابه بصلة، «إسلام ضد الإسلام». ونراه يحاول إعادة دور الجامع ويلح على أهمية يوم الجمعة. ويلاحظ أنه يسأل عن غياب الجامع وليس المسجد. لأن الجامع من الجمع والجماعة والاجتماع والجمعة، ولذلك فهو يؤدي دوراً حياتياً دنيوياً، وليس مجرد دور طقوسي يجلس فيه الناس ليقرع الفقيه على ذنوبهم وقلوبهم بتذكيرهم بالويل والثبور. ولم يختر كلمة «المسجد» لأنها لا تحتمل المفهوم الحياتي المعيشي، فهي من سجد يسجد سجوداً. بكامات أخرى، فقد أراد النيهوم تخليص الدين من الأطر التي وضعه فيها فقهاء السلطة ليعود ديناً للحرية والتقدم والعدل مثلما أراده الله.

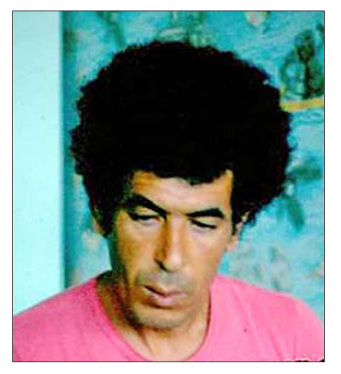


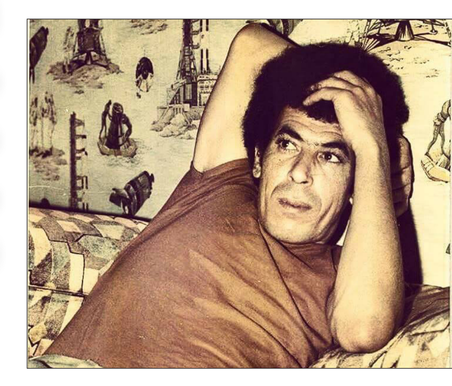
على عكس المشاريع اللاحقة لنقد الخطاب الديني التي اتكأت على رؤية ومنهجية من خارج منظومتة الفكرية. انبنى المشروع التنويري الإصلاحي يستولد مرجعيته من داخل بنية الفكر الديني الإسلامي، ولذلك فهو يرفض مسألة توقف الاجتهاد الفقهي ويدعو لانفتاحها على تطورات الحياة السياسية والاجتماعية.

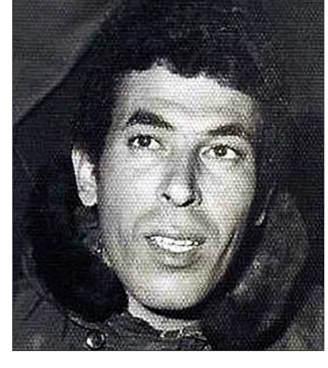
كما أدرك النيهوم أهمية التعليم وخطورة نمط التعليم التقليدي السائد في البلاد العربية والإسلامية على حاضرها ومستقبلها. لأنه تنميط للنشء وتجهيل إجباري، بخلق نسخاً مكررة ويقتل طاقات الأجيال القادمة الإبداعية. أنه تعليم يكبل العقل ويمنع تجاوز البنى القائمة عن طريق اعتماد المناهج الجامدة وطرق التعليم المتخلفة. واعتبر أن الناس يقدمون أولادهم للفقهاء الذين يشكلون عقولهم بما يخدم السلطة والسلطان.

تناول النيهوم مسألة (الجندر)، وانعدام المساواة بين الجنسين، وعدم إنصاف المرأة، وذكورية المجتمع. وانحاز النيهوم للمرأة وانتقد تهميشها وتكبيلها وتعطيل دورها. فهي تمثل نصف المجتمع ولا يعقل تحييد هذا الكم وتغييبه عن معرك المجتمع في التنمية والبناء. وما أزعج النيهوم هو ممارسة هذا التهميش بدعاوى دينية، وهي في الحقيقة دعاوى ذكورية ألبست ثوب الدين. وفي هذا السياق قال النيهوم في مقدمة كتابه (فرسان بلا معركة): «مجتمعنا مجتمع الرجال، وذلك لا يعني بالطبع أن جميع مواطنينا من الذكور فقط، بل يعني بتفصيل أكثر أنه إذا أتيحت لك الفرصة ذات مرةٍ لكي تتعرف على ثقافتنا من الداخل فلا بدّ أن تكتشف فوراً أنها غير محايدة تسودها وجهة نظر الرجل وحده، إنّ الفكر الذي ينظر إلى العالم من وجهة نظر الرجل وحده هو فكر متحيّز وغير قادر على التزام الحياد وفق خاصيته، لكنه يرى الأشياء بعين الرجل ويتجاهل عين المرأة والطفل، ويتجاهل أيضاً أن هذا الخطأ بالذات يجعله يبدو من











الخارج بمثابة فكرٍ أعور، إنه مُعد لكي يرى نصف الحقيقة فقط».

وأضاف النيهوم في موضع آخر «المرأة في بلادنا لم تشارك في هندسة مجتمعنا، لم تشارك في تقييم أخلاقياته، لم توافق على مزاعمنا القائلة بأن شرف البنت مثل عود الكبريت وشرف الرجل مثل ولاعة "الرونسون». وهذا هو بالتمام ما تقول به المدرسة النسوية أو الأنثوية (Feminism) التي تقود نضالاً عالمياً لأنصاف المرأة، وإقامة مجتمع الرجال والنساء.

ولن نخوض في العواصف التي ثارت في وجه النيهوم، والمتاعب التي سببها له هذا الفكر من منع وتضييق وحتى ملاحقة أحياناً. وقد كان الرجل عرضة لنقد غير موضوعي، فرسانه من نصبوا أنفسهم حراساً للدين، يبدأ بكيل السباب والشتائم ولا ينتهي إلا بالتكفير. لكن بعض الأصوليين الأكثر اعتدالاً أخذوا على النيهوم اقتباسه من مفكرين



وأدباء عالميين واعتبروا أن فكره دخيل وغير أصيل ومستورد. وفي معرض الرد على هذه التهمة قال النيهوم: «كلمة الفكر المستورد تعني في الواقع أن أحدا ما في هذا العالم المترامي الأطراف يعبئ أفكاره في علب الورق المقوى، ويكتب عليها طريقة الاستعمال، ثم يرسلها إلينا – مثل أقراص الأسبرين – لكي يبتلعها المواطن في بنغازي عندما يحس بوجع الرأس. وأنا أعتقد أن هذه الخرافة لا تبدو غير معقولة فحسب، بل إنها أيضا تبدو بذيئة إلى حد كاف». وتضور النيهوم لخصه بقوله «العالم مجرد سوق مفتوحة على الدوام، يرتادها الإنسانُ في جميع العصور وجميع الثقافات لكي يشتري منها ما يحتاج إليه من الثياب والأفكار وفرش الأسنان، ثم يعود بسلّته إلى (أرض الوطن) ويعمل على تطوير مشترياته لكي تلائم حاجاته أكثر، ريثما تطرأ على السوق بضاعةٌ جديدة».

يقول النيهوم: «المرأة في بلادنا لم تشارك في هندسة مجتمعنا، لم تشارك في تقييم أخلاقياته، لم توافق على مزاعمنا القائلة بأن شرف البنت مثل عود الكبريت وشرف الرجل مثل ولاعة "الرونسون». وهذا هو بالتمام ما تقول به المدرسة النسوية أو الأنثوية (Feminism) التي تقود نضالاً عالمياً لأنصاف المرأة، وإقامة مجتمع الرجال والنساء.



وأضاف بأنه لا يوجد في العالم «بلد نبت داخل حدوده، وكل فكرة وجدها الإنسان في طريقه أصبحت ملكا مشاعا للإنسان».

لا يتسع المقام للاسترسال، ولا يكفي النيهوم أي حيز للاحاطة بدرره وأعماله. ليس شرطاً أن نتفق مع كل ما قال النيهوم وما كتب. فلكل أفكاره وقناعاته. لكن لا ينبغي أن نختلف حول موهبة النيهوم وسعة أفقه وقدرته الفائقة على الانطلاق والتألق. ولا ينبغي أن ننكر أن هذه العبقرية الفذة نبتت في بيئة صحراوية قاحلة. فسبحان الذي يخرج الحي من الميت.

لا يتسع المقام للاسترسال، ولا يكفي النيهوم أي حيز للاحاطة بدرره وأعماله. ليس شرطاً أن نتفق مع كل ما قال النيهوم وما كتب. فلكل أفكاره وقناعاته. لكن لا ينبغي أن نختلف حول موهبة النيهوم وسعة أفقه وقدرته الفائقة على الانطلاق والتألق. ولا ينبغي أن ننكر أن هذه العبقرية الفذة نبتت في بيئة صحراوية قاحلة. فسبحان الذي يخرج الحي من الميت.

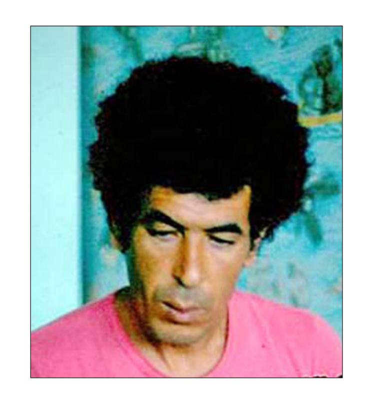
الصادق النيهوم... تنويريٌّ ضيّعه العرب

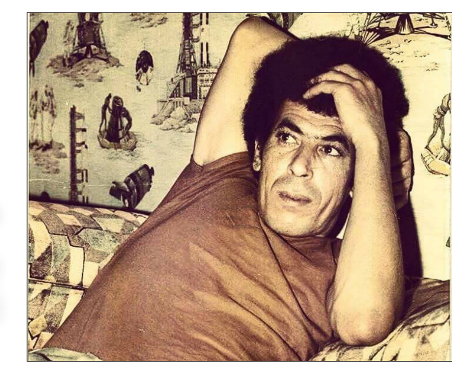
رامي التلغ

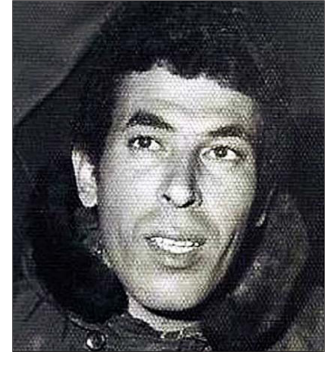
إشكالات عدّة لا تزال تدور حول هذا الرجل الظاهرة الذي تمكن من طرح العديد من الأسئلة، ليس فقط على الجيل الذي عاصره، بل على الأجيال القادمة التي ستأتي.

الصّادق النيهوم تمكّن من خلال الرصيد المعرفي الذي راكمه من أن يستهدف أطوارًا من حياة وتاريخ العرب والمسلمين في حالة صعود وهبوط مستمرة، وبالتالي فقد صمم لها في ما أتاحه له عمره القصير فضاءات تتحرك فيها مفكرة فيها ومحللة لتعقيداتها ومفككة لتفاصيلها.







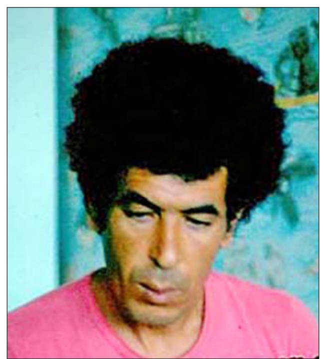






وكان النيهوم يعدّ الجهل نقيضاً للصحة العقلية وليس نقيضاً للمعرفة، فالجاهل في رأي النيهوم ليس دماغاً أبيض ممسوحاً لا يضمّ في داخله سوى الفراغ بل يفترض أن الجاهل يمتلك دماغاً ممتلئاً حتى حافته بأشكالٍ خاصةٍ من المعارف الخاطئة، ولذلك يكون «الجهل أشد فتكاً من الجنون أو العقل الفارغ».

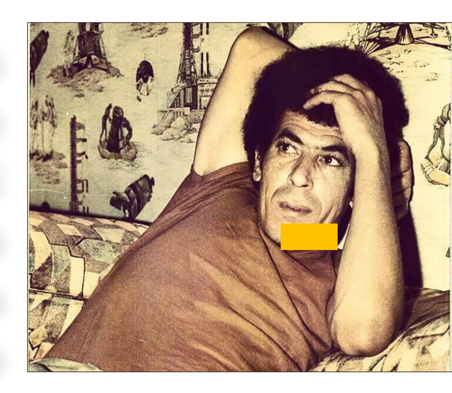
من ذلك، إرتكز المنحى التنويري لدى النيهوم على أساس القضاء على الجهل والخوف لدى الفرد العربي المسلم المعاصر الذي لا يزال منخرطا في منظومة فكرية متخلفة قوامها الصراع مع الجن والأرواح الغامضة ووسطاء السحرة وأعمال المشعوذين.



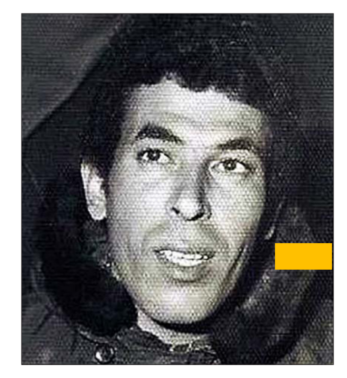
يمكن أن نستشفّ هنا أن نظرة المفكّر للتنوير بأنه قائم أساسا إعادة «سلطة العقل إلى العقل وحده» وليس سلطة الشيخ على العقل أو سلطة الدكتاتور على العقل بالتالي فإن المنظومة الفكرية التي لا تستند على وعي الحياة والوجود من خلال مفهومات تستند إلى العلم التجريبي يصنّفها على أنها تنوير غير حقيقي وغير فاعل.

الرؤية التنويرية لدى النيهوم القائمة على تفكيك الوعي السائد و إعادة تركيبه على أسس عقلية علمية جعلت منه في صراع محتدم مع القوى التي تتناقض مع مشروعه الفكري داخل مجتمعه والتي لمست تهديدا لوجودها من خلال مشروع النيهوم و هو أساسا تيار الإسلام السياسي الذي «الذي يدعي لنفسه فكرة العودة إلى الأصالة ورفض المعاصرة، متجاهلاً حقائق مادية ملموسة تدلّ على درجة تطور العلم والمعرفة والحياة لدى الآخر».

> الصادق النيهوم تمكّن من خلال الرصيد المعرفي الذي راكمه من أن يستهدف أطوارا من حياة وتاريخ العرب والمسلمين في حالة صعود وهبوط مستمرة، وبالتالي فقد صمم لها في ما أتاحه له عمره القصير فضاءات تتحرك فيها مفكرة فيها ومحللة لتعقيداتها ومفككة لتفاصيلها.



فهذا التوجّه الرّجعي يقف حائلا أمام الإسلام السياسي لممارسة نقد التراث أو الهروب من الفعل النقدي خوفا من الخسائر السياسية و الإلتجاء للمناورة من خلال إلباس هذا التراث حللاً حداثية.

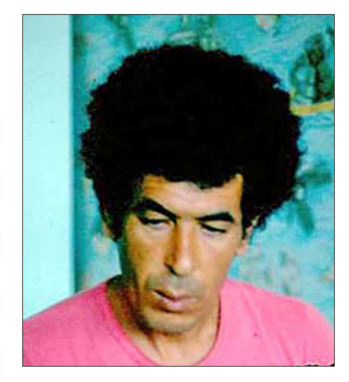
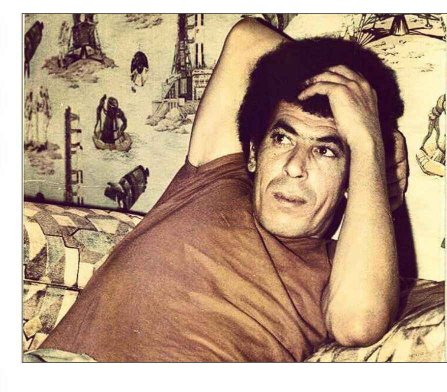
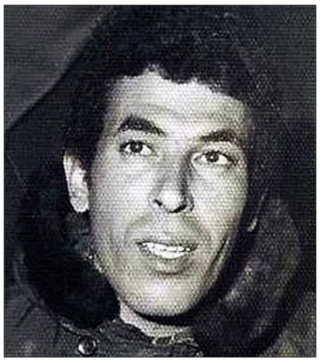


لم يكن النيهوم تجريديًّا أو مطنبًا في التنظير حيث لم تنفصل مباحث التنوير لديه عن بيئته الاجتماعية والسياسية والفكرية إذ تناولت دراساته التنويرية مسائل التخلف الاجتماعي وتخلف الفكر الديني السائد.

وناقش تنوير النيهوم مسائل مهمة كموضوع الحجاب لدى المرأة المسلمة وطبيعة المجتمع العربي الذكورية، إضافة إلى نقد الإسلام السياسي والموقف من الديمقراطية.

وتناول الكاتب قضايا مجتمعية مفصلية كتشخيصه لطبيعة هذا المجتمع بأنه مجتمع رجالٍ أي مجتمع تقوم رؤاه وممارساته على أساس ثقافة ذكورية لا ثقافة إنسانية يبنيها الرجلُ والمرأة على السواء. حيث يقول النيهوم في مقدمة كتابه «فرسان بلا معركة»: «مجتمعنا مجتمع الرجال، وذلك لا يعني بالطبع أن جميع مواطنينا من الذكور فقط، بل يعني بتفصيل أكثر أنه إذا أُتيحت لك الفرصة ذات مرةٍ لكي تتعرف على ثقافتنا من الداخل فلا بدّ أن تكتشف فوراً أنها غير محايدة تسودها وجهة نظر الرجل وحده، إنّ الفكر الذي ينظر إلى العالم من وجهة نظر الرجل وحده هو فكر متحيّز وغير قادر على التزام




الحياد وفق خاصيته، لكنه يرى الأشياء بعين الرجل ويتجاهل عين المرأة والطفل، ويتجاهل أيضاً أن هذا الخطأ بالذات يجعله يبدو من الخارج بمثابة فكرٍ أعور، إنه مُعد لكي يرى نصف الحقيقة فقط». من جانب آخر، يعتبر النيهوم أن»مشكلة الحجاب ليس بكونه فكرة يهودية خالصة وإنما في القيمة التي يسعى إليها الفقيه المسلم ومعلمه العبراني من قبله إلى إلباسها للمرأة بوجودها الجسدي والمعنوي، تماماً هذا هو السرُّ الذي يُخفيه الحجاب خلفه فيجعل من المرأة عاراً وجسداً نجساً يجب ستره. على هذا يبدأ مسار تحرير المرأة من فك الرموز والأحجيات التي تحوم حول وجودها لنصل بعد ذاك إلى (المرأة الجديدة) التي يحدثنا عنها المفكر المصري الراحل قاسم أمين».

بالتالي فإن إلزام المرأة بحجب شعرها فضلا عن إستبعاد صوتها بحكم أنه عورة لا يجوز كشفها لا يعدّ حسب النيهوم إلا بروباغندا رجالية بغاية إقصاء المرأة من لعب دور مجتمعي مرموق من خلال حرمانها بحكم الشريعة من تولي مناصب مهمة.

لذلك يقول النيهوم: «حُرمت المرأة المسلمة شرعاًمن حق المشاركة في مسائل الدين وتمّ إقصاؤها عن ميدان التشريع الذي سخره الفقهاء لخدمة أمراء الإقطاع على غرار ما حدث في الكنسية الكاثوليكية. ويرى النيهوم أن النص القرآني: «وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا».

كما أن رؤية النيهوم التنويرية تضع ضمن أولوية إهتماماتها مسألة التعليم في العالم العربي حيث وجّه سهام النّقد لمناهج التعليم المسخّرة لخدمة السلط السياسية من خلال توجّه برمجة العقول و تسطيحها لمنعها من تكوين ملكة نقديّة من خلال تسييجها في إطار تفاسير فقهاء الدّين إذ أشار النيهوم في هذا الإطار:»خلال الخمسين عاماً التالية كان نظام التعليم قد أصبح وسيلة شرعية لتسليم ملايين الأطفال العرب في عهدة فقيه جاهل يتولى حشو أدمغتهم بمعلومات موجهة عمداً لشلّ عقل الطفل وتدمير قدراته على التفكير المنطقي».

لقد طرق النيهوم مواطن الإنسداد الحضاري الذي يعيشه العالم العربي المسلم و كان له مشروعا تنويريا متفرّدا إلا أنه رحل قبل أن يصل إلى خاتمة مقاله البحثي في نقد «الفكر الديني»والمساهمة في تحرير الإسلام من «الأسر».

”

ناقش تنوير النيهوم مسائل مهمة كموضوع الحجاب لدى المرأة المسلمة وطبيعة المجتمع العربي الذكورية، إضافة إلى نقد الإسلام السياسي والموقف من الديمقراطية. وتناول الكاتب قضايا مجتمعية مفصلية كتشخيص لطبيعة هذا المجتمع بأنه مجتمع رجالٍ أي مجتمع تقوم رؤاه وممارساته على أساس ثقافة ذكورية لا ثقافة إنسانية يبنيها الرجل والمرأة على السواء.



لقد طرق النيهوم مواطن الإنسداد الحضاري الذي يعيشه العالم العربي المسلم و كان له مشروعا تنويريا متفردا إلا أنه رحل قبل أن يصل إلى خاتمة مقاله البحثي في نقد «الفكر الديني»والمساهمة في تحرير الإسلام من الأسر.

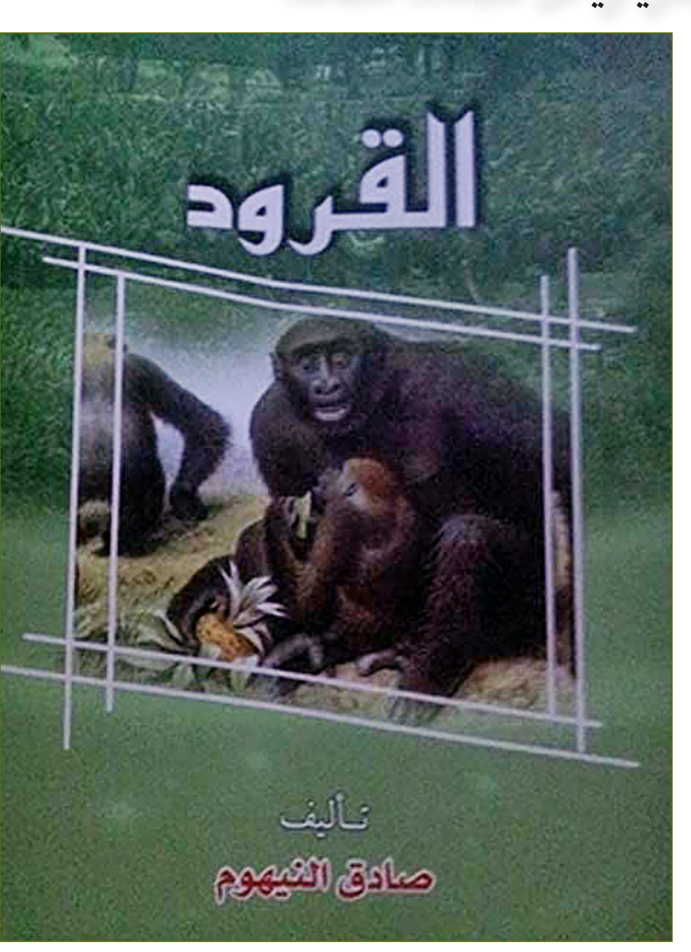
”

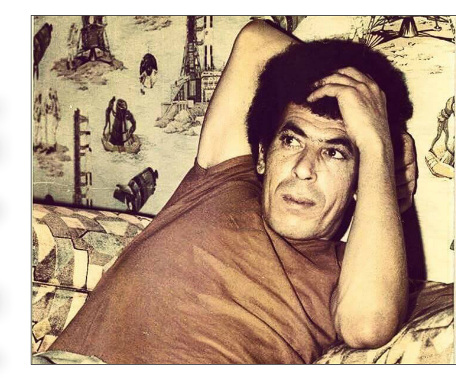


في مشروع «النيهوم» الروائي

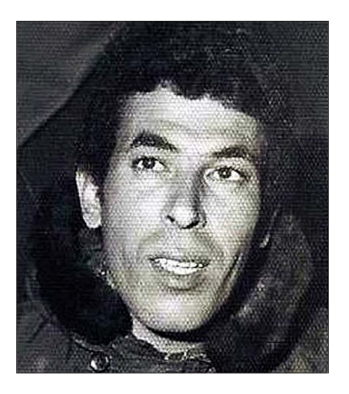
رمزي الزايري

صادق رجب النيهوم من الأدباء الليبيين البارزين الذين تركوا بصمة واضحة على كل المنجز الثقافي الليبي منذ ستينيات القرن الماضي و حتى الآن ،هو من الكتاب الذين جمعوا بين التراث والحداثة وخاض بنجاح استثنائي في كل مجالات الثقافة.





قيمة النيهوم لدى الأدباء العرب قيمة كبيرة ويعتبر من القامات الفكرية التي فقدها الوطن العربي في أوج عطاءها فكتب القصة القصيرة والدراسة النقدية والمقالة الأدبية والمقالة الفكرية وحرر الكتب التاريخية والموسوعات الشاملة لكل العلوم ،و لم يرحل عن عالمنا هذا إلا بعد أن ترك للمكتبة العربية والعالمية مكتبة كبيرة على هيأة مجموعة لا بأس بها من الكتب في مختلف المجالات، في صدارتها ثلاث روايات "من هنا إلى مكة"، "القرود" و"الحيوانات".







وقد اتخذ النيهوم منذ رواية« من مكة إلى هنا »مسارا نوعيا آخر في تجربته الإبداعية، حيث اتجه إلى الكتابة السردية التي كان فيما قبل يستخدمها ضمن سياق كتاباته المتنوعة ،بهذه الرواية سيبدأ مسارا كان قد وكده في قصص للأطفال ، وكما يبدو فإن الكتابين يمثلان مرحلة جديدة في مساره الإبداعي ، خاصة في' الحيوانات' فالرواية تستمد روحها من رواية '1984' و' القرود' التي يمكن اعتبارها الجزء الثاني للحيوانات.

** من مكّة إلى هنا.. ثنائية اللون و الدين

نصف قرن مضى على صدور رواية «من مكة إلى هنا» 1970م ،للكاتب الليبي المرحوم الصادق النيهوم ،محاولا فهم رؤية الإنسان الليبي البسيط للإسلام و رصد التشوهات التي لحقته في رحلته الطويلة من مكة ،و رصد تشكيل الشخصية التراثية إلى شخصية معاصرة من حيث رؤيتها النقدية العنيفة للواقع السياسي الليبي المعاصر.

في شرق ليبيا -حيث تدور أحداث الرواية- تمثل قرية سوسة رقعة التفاعل الحضاري الحي لحضارات المتوسط في ليبيا؛ فسكانها مهاجرون من جزيرة «كريت» اليونانية، وبطل الرواية «مسعود الطبال» ليبي زنجي تعود أصوله لإفريقيا وكذلك زوجته.

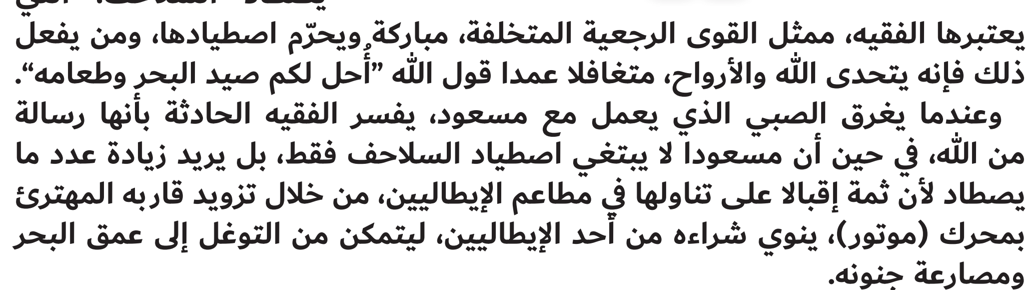


على شاكلة النص التراثي القديم، جنحت رواية «القرود» (1975) إلى تشييد عوالمها الحكائية ضمن رؤية فنية ترنو إلى التوفيق بين عناصر سردية تسترفد مقوماتها من الموروث الحكائي العربي القديم، وعناصر سردية أخرى تستمد مكوناتها من السرد الغربي الحديث.



وهو يذكّرنا، بعناده وشيخوخته ووحدته، بشخصيّة الشّيخ الصيّاد سنتياغو في رواية همنغواي الشّهيرة "الشّيخ و البحر"، وقد جُرّد من كلّ الصفات الّتي تجعله في مرتبة الأبطال.

أحداث الرّواية قليلة لأنّ معظمها يدور في سريرة مسعود وباطنه أكثر ممّا تجري في أرض الواقع، فهو في صراع محتدم مع فقيه القرية، القابض على سلطة الدين، بدلالتها الكهنوتية القمعية، وذلك لأنه، أي مسعود الطبال، يصطاد السلاحف، التي يعتبرها الفقيه، ممثل القوى الرجعية المتخلفة، مباركة ,ويحرّم اصطيادها، ومن يفعل ذلك فإنه يتحدى الله والأرواح، متغافلا عمدا قول الله "أحل لكم صيد البحر وطعامه".



وعندما يغرق الصبي الذي يعمل مع مسعود، يفسر الفقيه الحادثة بأنها رسالة من الله، في حين أن مسعودا لا يبتغي اصطياد السلاحف فقط، بل يريد زيادة عدد ما يصطاد لأن ثمة إقبالا على تناولها في مطاعم الإيطاليين، من خلال تزويد قاربه المهترئ بمحرك (موتور)، ينوي شراءه من أحد الإيطاليين، ليتمكن من التوغل إلى عمق البحر ومصارعة جنونه.

والإسلام هنا في «سوسة» ليس إسلام مكة في القرن الأول للهجرة، بل هو خليط من الإسلام وموروث ذلك المكان الليبي المختلف. وعلى الرغم من هذا الاختلاف الظاهر، يعيد النيهوم سيرة «الحركة السنوسية» التي نشأت على الأصول والأسباب نفسها، والتي حاولت أيضا أن تقدم مشروع إصلاح ونهضة دينية و اجتماعية ،غير أنها أضرت بالمشروع الوهابي في المشرق.

ويستثمر النيهوم ذلك ليجعل شخصية مسعود الطبال متمردا وجوديا يصوغ نفسه عبر أسلوب المناجاة في نسيج الرواية، ويعيش مع أفكاره أكثر مما يعيش مع عالم



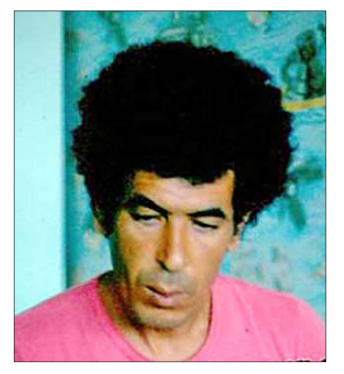






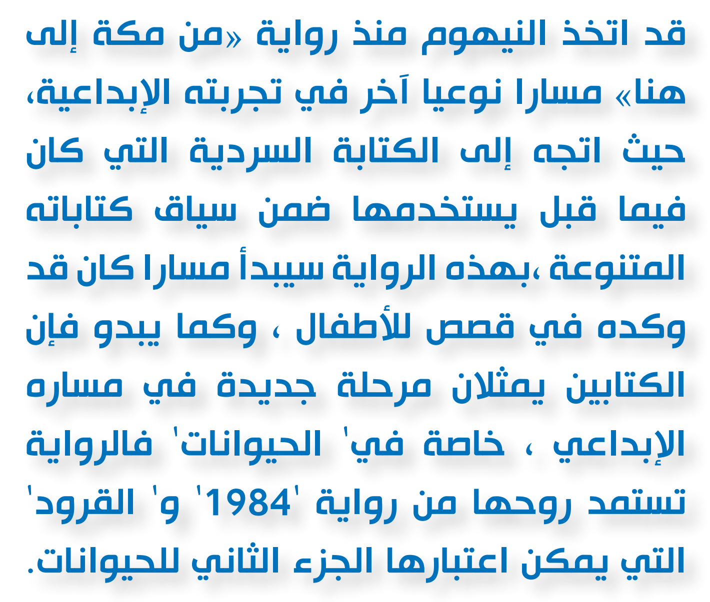
الصيد، لكنه في نسيج الفضاء السردي (قرية الصيادين) كائن لا منتمي هامشي، وكأنه إحدى شخصيات كولن ويلسون.
«من مكة إلى هنا» موضوعية فكرية وتاريخية حكمت التفكير والاجتماع والسياسة في ليبيا والوطن العربي منذ الفتنة الكبرى وحتى الآن، وظل يعاد طرحها دائمًا «من هنا إلى مكة». إنها حج الفكر الإسلامي وحنينه «النوستالجي» الدائم. أول قل «سلفية الحداثة» العربية، وإن تنوعت واختلفت مظاهرها وطقوسها.

**القرود.. سرد يرمز إلى التنافس بين البشر

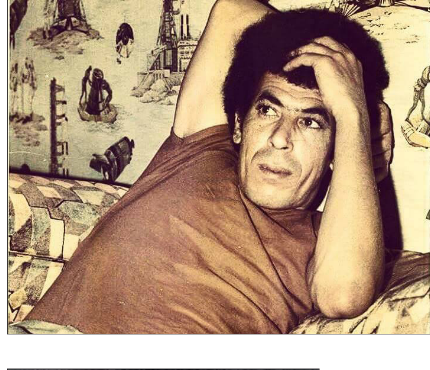


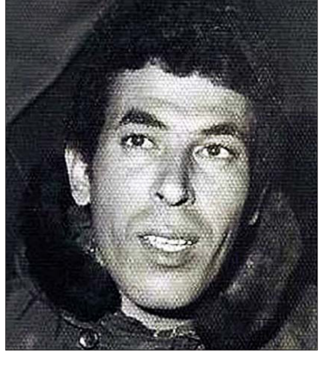
حاول النيهوم في رواية «القرود» إسقاط الكثير من الملامح، ومنها عن بعض الزعامات الكرتونية، والتي أغرق في وصفها، مما تسبب بمنعها في ليبيا، خشية تأويلها تأويلاً خاطئاً ،حرص على منح تجربته الروائية نوعا من التفرد، وذلك عبر توسيع دائرة توظيف الموروث القصصي الحيواني.
وعلى شاكلة النص التراثي القديم، جنحت رواية «القرود» (1975) إلى تشييد عوالمها الحكائية ضمن رؤية فنية ترنو إلى التوفيق بين عناصر سردية تسترفد مقوماتها من الموروث الحكائي العربي القديم، وعناصر سردية أخرى تستمد مكوناتها من السرد الغربي الحديث.
وتدور رواية القرود حول التنافس بين البشر (قطيع القرود) على نحو عام ،على السلطة والسلاح والقوة والثروة والإناث ،وتكون الغلبة لمن يملك القوة العضلية والمهارة القتالية اليدوية إلى أن يكتشف أحدهم، عن طريق الصدفة، صناعة سلاح عجيب يقلب ميزان القوى، وهو عبارة عن عصا في رأسها عقرب سامة مثبتة بخيط، عندئذ تميل الكفة في الصراع بين زعماء القرود على القيادة والإناث لصالح من يمتلك هذا السلاح الفتاك المخيف!



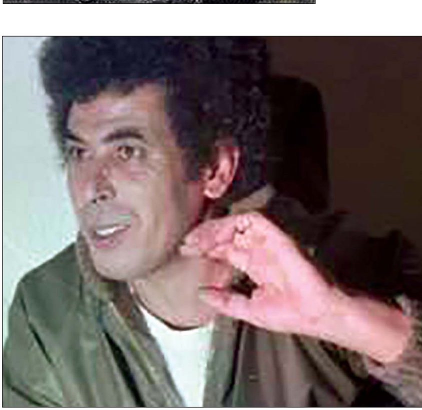


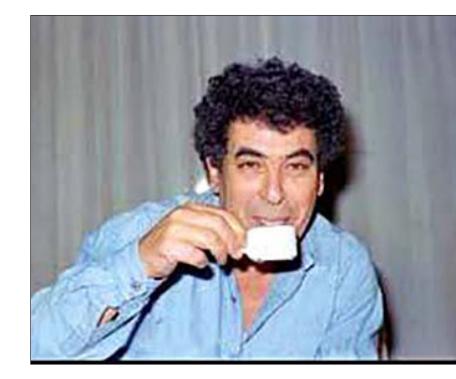






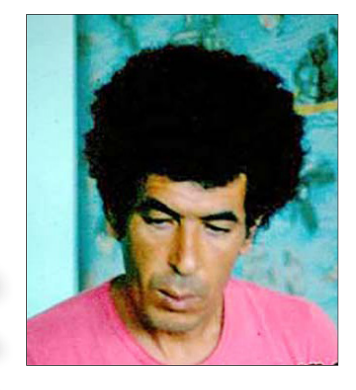
لكن هؤلاء الزعماء يتعلمون بدورهم صناعة هذا السلاح، ومن ثم يمتلكون قوة ضافية في مواجهة خصومهم، ويحصل نوع من توازن القوى الرادع بين الذكور الأقوياء في مجتمع القرود إلى أن يحدث ما لم يكن في الحسبان حيث يتعلم كل من هبّ ودبّ من القرود صناعة هذا السلاح، فتصبح جميع القرود مسلحة، ويفقد الذكور الأقوياء والزعماء، عندئذ، مصدر قوتهم وهيبتهم، فيدب الاضطراب في مجتمع القردة، وتتلاشى السلطة وتسود الفوضى.
وبصرف النظر عن الإشكالات المعجمية و الإصطلاحية التي صاحبت «الحكاية الخرافية»، فقد احتل هذا الشكل الحكائي التراثي حجر الزاوية في أعمال الصادق النيهوم، سواء أكانت قصصية أم روائية. فمنذ مجموعته الأولى «من قصص الأطفال»،





ومرورا برواية «القرود» التي قدم فيها الروائي صورة ناقدة/هازئة عن الأنظمة العربية في علاقتها بإسرائيل، وانتهاء برواية «الحيوانات»؛ كشف الصادق النيهوم عن اهتمام كبير بالتراث عموما، وبالحكاية الخرافية خصوصا

لقد حاول هذا الروائي، وخاصة في روايتيه «القرود» و«الحيوانات»، أن يعرض لعلاقة المثقف الليبي بالسلطة، وهي علاقة تضرب بجذورها في عمق التاريخ العربي. وفي هذا الإطار شكلت الخرافة مجالا فنيا أرحب اتخذه الروائي المغاربي، وقبله راوي الشعب، أداة ليس لتمرير رسالته السياسية/ المرمزة إلى أولي الأمر فحسب، وإنما اعتمده علاوة على ذلك، وسيلة لتحقيق لون من التعالق الفني بين الشكل الروائي والموروث السردي العربي.



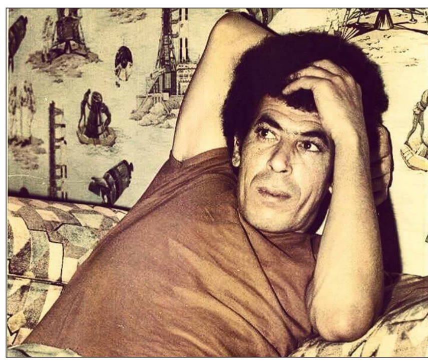


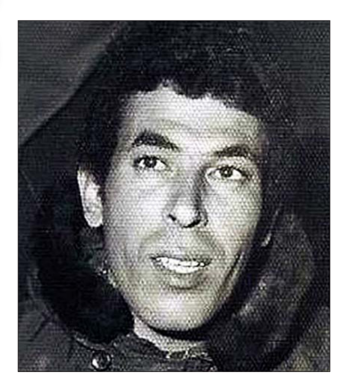
قد اتخذ النيهوم منذ رواية «من مكة إلى هنا» مسارا نوعيا آخر في تجربته الإبداعية، حيث اتجه إلى الكتابة السردية التي كان فيما قبل يستخدمها ضمن سياق كتاباته المتنوعة ،بهذه الرواية سيبدأ مسارا كان قد وكده في قصص للأطفال ، وكما يبدو فإن الكتابين يمثلان مرحلة جديدة في مساره الإبداعي ، خاصة في' الحيوانات' فالرواية تستمد روحها من رواية '1984' و' القرود' التي يمكن اعتبارها الجزء الثاني للحيوانات.



** الحيوانات.. من الشخصية التراثية إلى الشخصية المعاصرة

عبر المراوحة بين استلهام التراث والإفادة من منجزات السرد الحديث، استطاع النيهوم أن يجعل من نصه الروائي فضاء سرديا تحاورت فيه تشكيلات سردية تنتمي إلى قيم فنية متباعدة، بل وحتى متنافرة، ليس من حيث زمنيتها فحسب، وإنما من حيث السياق الثقافي. و قد ركن الصادق النيهوم في رواية الحيوان 1975م ،إلى استراتيجية فنية راهنت على المزاوجة بين مرجعيتين سرديتين أساسيتين هما: مرجعية تراثية وأخرى غربية.



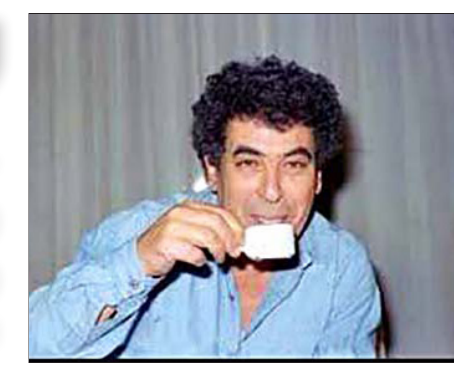


فبينما تستند المرجعية الأولى إلى المقومات الفنية للسرد العربي القديم مجسدا في حكاية الحيوان أساسا، نجد المرجعية الثانية تستمد روحها من المنجزات السردية كما تمثلها الرواية الغربية.

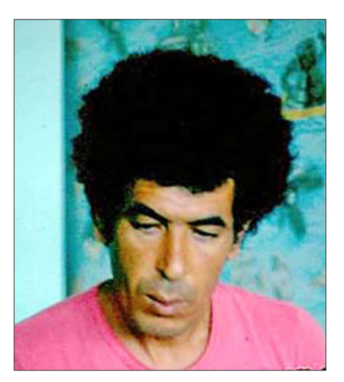
وانطلاقا من هذه المزاوجة الفنية بين هذين العالمين السرديين، تنهض رواية «الحيوانات» مشكلة نسيجا سرديا معقدا يقوم على جملة من العوالم الحكائية التي يمكن تحديدها بأربع حكايات هي: الحكاية الإطارية (حكاية الصقر والذئب)، حكاية الأسد والذئب، وحكاية الفيل، وحكاية السنجاب والصقر، وهي تنتظم ضمن نوع من التوالد السردي الذي يقوم على بنية سردية كبرى ،وبنيات سردية صغرى ،الأمر الذي أدى إلى تنوع الفضاءات، وتعدد الشخصيات، وتناسل الأحداث في شكل تداعيات جمعت بين الحقيقة والخيال، والواقع والرمز، والتجسيد والتجريد الذي ينزع، في بعض الأحيان، إلى توظيف العجائبي، وذلك على النحو الذي تمثله حكاية اختفاء الفيل.



و قد تحركت الشخصيات الحيوانية في عدة فضاءات أساسية أبرزها الغابة. والغابة



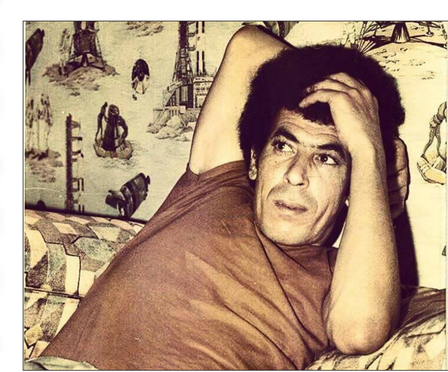
«من مكة إلى هنا» موضوعية فكرية وتاريخية حكمت التفكير والاجتماع والسياسة في ليبيا والوطن العربي منذ الفتنة الكبرى وحتى الآن، وظل يعاد طرحها دائما «من هنا إلى مكة». إنها حج الفكر الإسلامي وحنينه «النوستالجي» الدائم. أول قل «سلفية الحداثة» العربية، وإن تنوعت واختلفت مظاهرها وطقوسها.

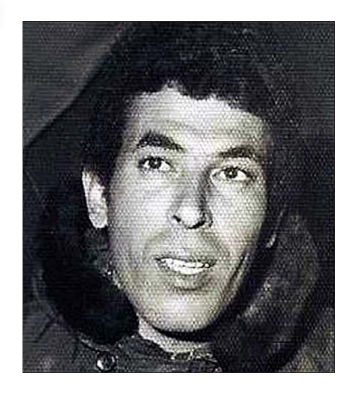




و قد ركن الصادق النيهوم في رواية الحيوان 1975م، إلى استراتيجية فنية راهنت على المزاوجة بين مرجعيتين سرديتين أساسيتين هما: مرجعية تراثية وأخرى غربية. فبينما تستند المرجعية الأولى إلى المقومات الفنية للسرد العربي القديم مجسدا في حكاية الحيوان أساسا، نجد المرجعية الثانية تستمد روحها من المنجزات السردية كما تمثلها الرواية الغربية.





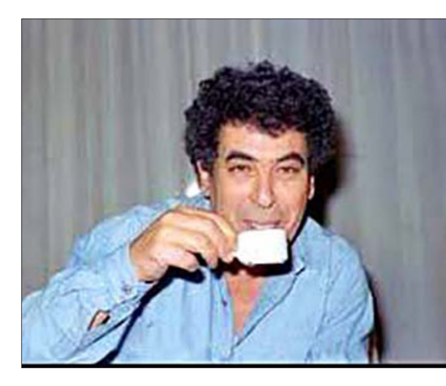
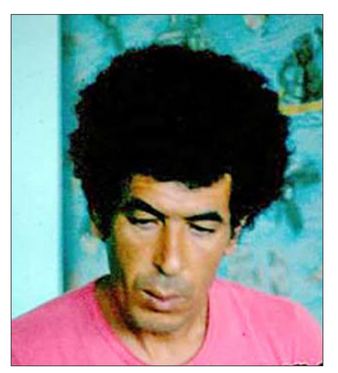
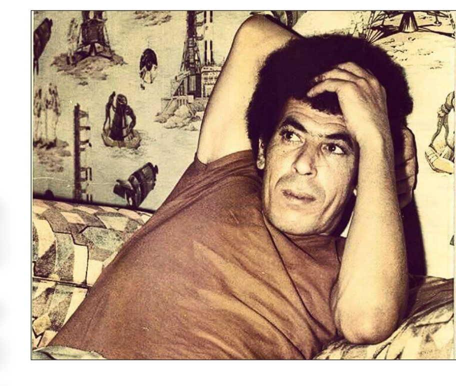
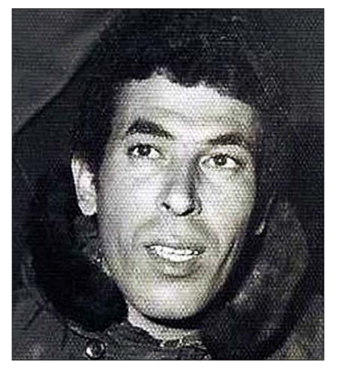


المستحضرة في السياق الروائي تختلف عن تلك الموظفة في الحكاية الخرافية أوالمثلية، فهي لم تعد ذلك الحيز الجغرافي الذي تتعايش فيه الحيوانات أوتتصارع على نحوما نجد في حكايات «كليلة ودمنة»، وإنما غدت فضاء اتسم فنيا بجملة من الخصائص والأبعاد. وقد عكست رواية «الحيوانات» هذه الحاجة الفنية الملحة إلى تجديد المعرفة بالتراث، وتحصين الوعي بالواقع والتاريخ، وذلك عبر التسلح بعقلية نقدية/ ساخرة/ قلقة / جريئة لا تتحرج في إخضاع كل المنجزات، بما في ذلك المنجز التراثي الديني، إلى سؤال العقل والنقد.

كما حملت رواية «الحيوانات» ازدواجية واضحة قائمة بالأساس على ظرفية المكان و الزمان ،بين مكان تراثي له علاقة بالشكل الحكائي المستلهم، ومكان آخر روائي له ارتباط بالواقع السياسي في ليبيا في العقدين السبعيني والثمانيني من القرن العشرين.

متأثرا بالمناخ التجديدي التأصيلي الذي بشرت به حركة التجريب ،الملحة في خلق رواية مغاربية تتسم بالخصوصية والنضج، ليس على المستوى الدلالي فحسب، وإنما على مستوى المبنى الحكائي كذلك ،خرج الصادق النيهوم عوالمه التخليلية على حكاية الحيوان لما تحمله من رصيد رمزي كثيف ،بمنح التجربة الروائية زخما فنيا وتعبيريا.



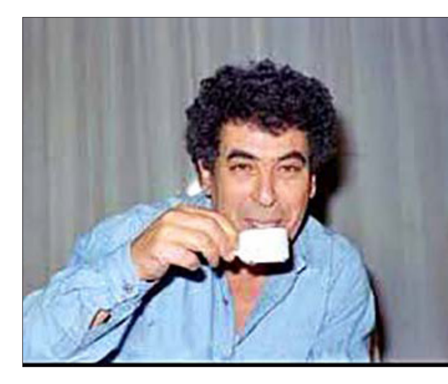

الصادق النيهوم.. لا مستشرقًا ولا شرقيًا ولا غربيًا

سالم الهنداوي

إذا كانت الفلسفة في درجتها العلمية النظرية، مجرَّد تفسير للفكر والتاريخ، فإن الصادق النيهوم الذي امتهن حياة اللغات للبحث في أصولها ومعارفها الحاضرة والغائبة، ومن تخصُّصه النادر في «مقارنة الأديان»، كان الفيلسوف الذي ظهر في شمال أفريقيا في النصف الأول من القرن العشرين، ليملأ الدنيا ضجيجاً بأفكار لم تكن جديدة في حداثتها، كما لم تكن قديمة في معيشها النظري والإنساني.

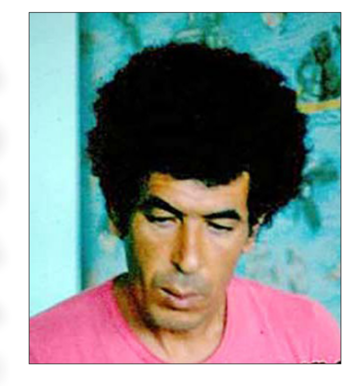


فهذا المفكِّر التنويري، بامتياز العقل والفكر، لم يكن استشراقياً في فكره، ولا شرقياً في معتقده الديني، ولا غربياً أيضاً في سلوكه الحياتي.



كان منتمياً للأرض وللإنسان، هنا وهناك، ومسلِماً «عِلمانياً» يؤمن بأن الحياة بمعناها الوجودي هي في اعتناقها للدين. ولقد كانت ثمرة بحثه الطويل في مقارنة الأديان هي «تحرير الإسلام» من سلطة الإسلاميين الذين جعلوه ممكناً لهم في الدنيا والآخرة، وعسيراً وصعباً على أمة الإسلام التي فقدت مبدأ الشورى في تاريخ الخلافة، وخسرت الديمقراطية في تاريخ السياسة.

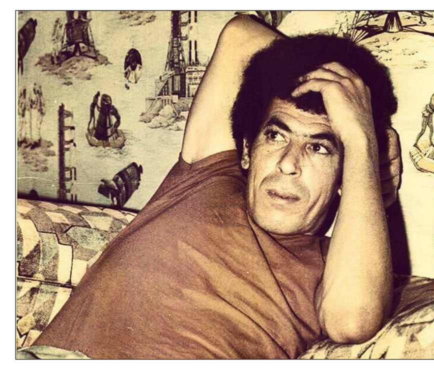




كان منتمياً للأرض وللإنسان، هنا وهناك، ومسلِماً «عِلمانياً» يؤمن بأن الحياة بمعناها الوجودي هي في اعتناقها للدين. ولقد كانت ثمرة بحثه الطويل في مقارنة الأديان هي «تحرير الإسلام» من سلطة الإسلاميين الذين جعلوه ممكناً لهم في الدنيا والآخرة، وعسيراً وصعباً على أمة الإسلام التي فقدت مبدأ الشورى في تاريخ الخلافة، وخسرت الديمقراطية في تاريخ السياسة.

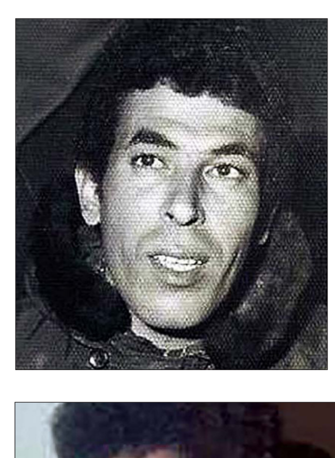


ولعل «موضوعة الجامع» في نقاشها الموضوعي التي عرضها النيهوم في سلسلة فكرية من الطروحات النظرية، قد شغلته كما شغلت الكثيرين في ردودها المتباينة لأكثر من عشرين سنة، وهي «الموضوعة الفكرية» التي كانت تأسست نهاية الستينيات مع نشر دراسته المشهورة آنذاك «العودة المحزنة إلى البحر».



لقد كان حضوره الفكري العربي في مجلة «الناقد» التي بدأت مسيرتها الثقافية المتميِّزة بمقالاته وانتهت بمقالاته، الأثر الكبير في ظهور مفهوم «النقد الديني التفكيكي» نتاج العقل الإسلامي في أصوله المعرفية قبل حقبة «الخلافة والفتنة»، تلك الحقبة التي قادت الإسلام إلى الاختلاف في شكل العقيدة، كما قادت الإسلام إلى الفرقة، في صميم هذه العقيدة.

لقد كان حضوره الفكري العربي في مجلة «الناقد» التي بدأت مسيرتها الثقافية المتميِّزة بمقالاته وانتهت بمقالاته، الأثر الكبير في ظهور مفهوم «النقد الديني التفكيكي» نتاج العقل الإسلامي في أصوله المعرفية قبل حقبة «الخلافة والفتنة»، تلك الحقبة التي قادت الإسلام إلى الاختلاف في شكل العقيدة، كما قادت الإسلام إلى الفرقة، في صميم هذه العقيدة.



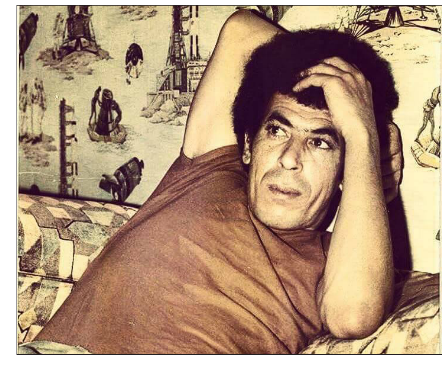
ولعله كان المفكر العربي الأبرز الذي أثار قضية «الجامع» وسأل المسلمين: من سرق الجامع وأين ذهب يوم الجمعة؟ وهو سؤال حُر كان يُمكِن لأي مسلم أن يسأله يوم الجمعة في الجامع، لكن «الديمقراطية» التي فتحت مدرستها السياسية المزوّرة في البرلمان، صادرت «الشورى» التي كانت مدرسة المسلمين





إذا كانت الآراء قد اختلفت حول فكره التنويري، فإنه استطاع أن يثق بتلك المعارف التاريخية الغابرة ويعمل على تفكيك رموزها التي جعلت منه مفكِّراً مختلفاً، وعن جدارة، في زمن «الفتوحات السياسية» التي صادرت حق «الشورى» في الجامع، من أجل ديمقراطية «البرلمان».. وهي المعضلة السياسية التي قادت إلى الاختلاف عبر التاريخ، وكانت سبباً رئيساً في ظهور ثقافة الأصولية الدينية ونشوب التطرُّف الإسلامي في المجتمعات الإسلامية.






السياسية في الجامع.

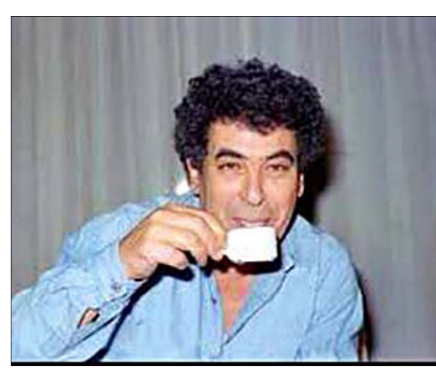
إن سِجالات الصادق النيهوم الفكرية وردود أفعالها المتباينة في المنابر العربية خلال العقدين الفائتيْن، جعلت منه «الكاتب» الأكثر أهمية في نقده «الثقافة الإسلامية.»

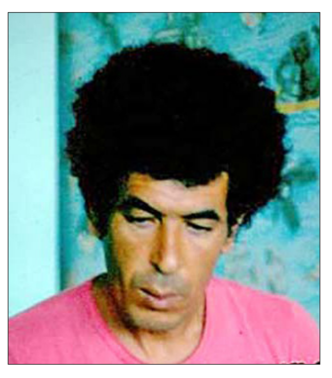
بوفاته انتهت مجلة «الناقد».. وبوفاته لم تنته معارك «الناقد» الكبير الذي طرح سؤال الناس لأكثر من نصف قرن حول البحث عن مكان ومكانة المسلِم في الإسلام.

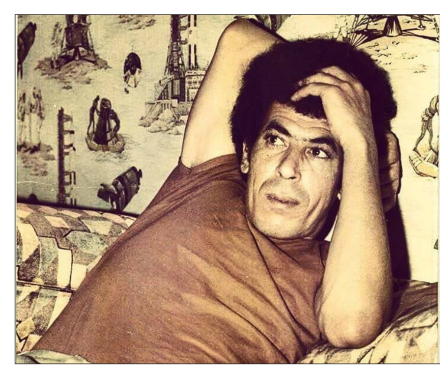
وإذا كانت الآراء قد اختلفت حول فكره التنويري، فإنه استطاع أن يثق بتلك المعارف التاريخية الغابرة ويعمل على تفكيك رموزها التي جعلت منه مفكِّراً مختلفاً، وعن جدارة، في زمن «الفتوحات السياسية» التي صادرت حق «الشورى» في الجامع، من أجل ديمقراطية «البرلمان».. وهي المعضلة السياسية التي قادت إلى الاختلاف عبر التاريخ، وكانت سبباً رئيساً في ظهور ثقافة الأصولية الدينية ونشوب التطرُّف الإسلامي في المجتمعات الإسلامية.

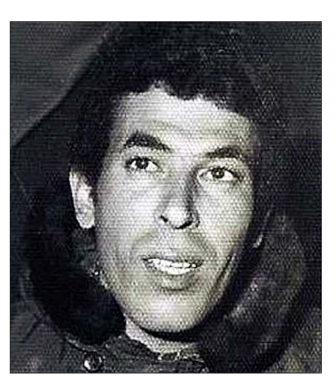
ولقد رحل الصادق النيهوم عن دنيانا مبكراً قبل أن يصل إلى خاتمة مقاله البحثي في نقد «الفكر الديني» والمساهمة في تحرير الإسلام من الأسر، ولقد كان لغيابه قبل الفجر تحديداً، علامة فارقة في مشوار حياته وفكره، ومحض سؤال يتكرَّر في الوجود عن موضوع لم يكتمل، ولن يكتمل من الأساس.





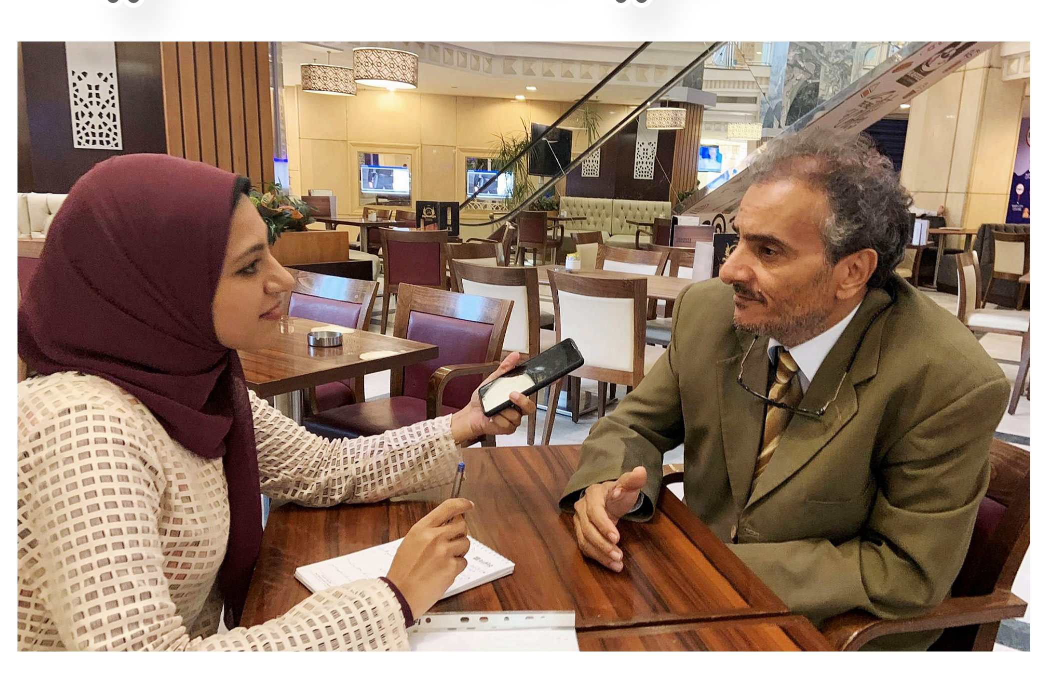






علي الهلالي:

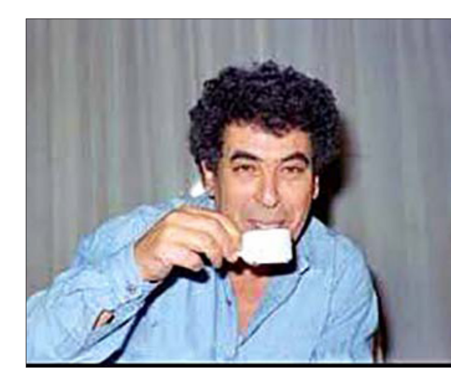
النيهوم كان ثورة في عالم الإبداع الفكري والثقافي





همسة يونس

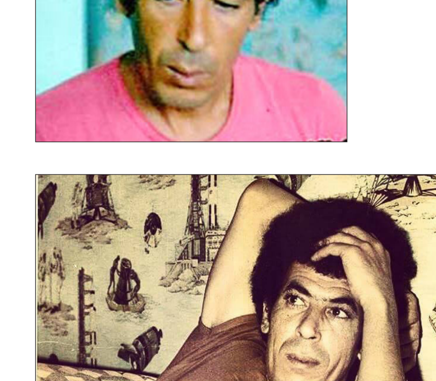
وصف الكاتب الصحفي علي الهلالي، المفكر الليبي الراحل الصادق النيهوم، بأنه «ظاهرة فكرية ثقافية لن تتكرر على المدى القريب. كما وصف الهلالي، النيهوم بأنه «المتمرد» والفارس في معركة القضايا الجدلية، ولذي كان يتسلح بثقافته ويتكأ على معرفته للدفاع عن أطروحاته وأفكاره غيرالتقليدية والتي تسبق عصره.



وللحديث بشكل أكثر تفصيلا عن الراحل «الصادق النيهوم»، كان لـ»بوابة إفريقيا الإخبارية» حوار مع الكاتب الصحفي علي الهلالي لتسليط الضوء على مشروع النيهوم الفكري، ونظرته للمجتمع الليبي والغربي وغيرها من النقاط... وإلى نص الحوار:

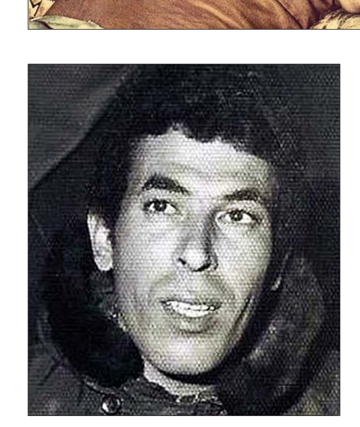
في البداية.. حدثنا عن نشأة الصادق النيهوم.. ونبذة عن مشروعه الفكري؟

الصادق النيهوم يمثل شخصية الليبي الذي نشأ في شوارع بنغازي، ومدينة بنغازي في تلك الفترة كانت توصف بأنها «ربايت الذايح» بمعنى أن بنغازي كانت تحتضن الجميع أو أنها المدينة الحاضنة، فليبيا مرت بها سنوات عجاف في بداية الستينات وواجهت عدد من الأزمات مثل المجاعة، والفقر، والجوع، والحرمان، ولكن بنغازي كانت تتميز بنوع من الطبيعة سواء في تكوين أهلها البدوي الجميل، فكانت البداوة تتميز بسمات جميلة جدا مثل أن تكرم الضيف وتعاون الجار وتغيث الملهوف، وبنغازي لم تكن استثناء عن باقي المدن الليبية في ذلك الوقت.. والصادق النيهوم نشأ من هذه القيم الجميلة والتي انعكست على تكوين شخصيته ومعاملاته مثله في ذلك مثل أي شباب أو أي طفل أو أي مولود شات له الظروف أن يعيش في بنغازي فنشأة النيهوم لم تكن استثناء، ولكن النيهوم يمثل استثناء في مرحلة ما بعد ذلك، وذلك حين دخل معترك الثقافة والأدب، لكن في بدايته نشأ في حواري بنغازي، التي كانت تضم جميع أطياف الشعب الليبي من مختلف المدن والمكونات الثقافية، فلم يكن يوجد في هذا الوقت مسألة الانتماء الضيق، وحتى الخطاب القبلي لم يكن معمولا به في تلك الفترة.



كيف كانت رؤية النيهوم تجاه المجتمع الليبي؟

الصادق النيهوم باختصار كان ثورة في عالم الإبداع الفكري والثقافي، وهذا نستقرأه ونستشفه من نتاج عمله الإبداعي الفكري، ويمكننا أن نضع عنوان لهذا الرجل بأن نقول إنه رجل كان يسبق عصره، وذلك باعتبار أن ما قدمه النيهوم كان يسبق تلك الفترة بكثير، مثل طرحه لأفكار كانت تعتبر «تابو» بالنسبة لليبيين أو بالنسبة للعرب أو المجتمع الإسلامي في ذلك الوقت، كما قدم النيهوم مشاريع كانت مثار جدل كبير جدا، فالصادق النيهوم كان مثير للجدل، ولكنه كان يقدم نموذج يمكن أن يعيش فيه العالم العربي الآن.



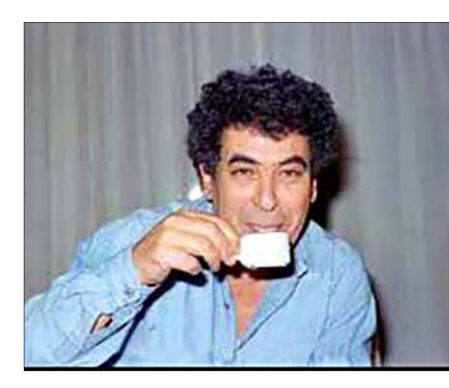
وماذا عن نظرته للغرب؟

الصادق النيهوم، كان كاتب متمرد، لكن التمرد عند النيهوم كان يحمل قيم ثقافية وأخلاقية، فالتمرد هنا لم يكن بالمعنى السيء للتمرد، فعندما يتمرد الإنسان على قيم بالية يعتبر تمرد جميل، فالله خلق الإنسان ليبحث عن الأفضل ويستشرف المستقبل ويبحث عن آمال أخرى، والمبدع عادة هو الشخص الذي يتخيل عالم ويبنيه وينسجه من خيالاته، ويحاول أن يجعله واقع ملموس على الأرض، فالصادق النيهوم كان متمرد على كل الأشياء التي لا ترق إلى مستوى الإبداع الفكري، ولكنه لم يجد في تلك الفترة من يجاريه في أطروحاته وطرحه للأفكار، ويمكننا القول إنه كان لديه اقتراب جذري بينه وبين المعطيات التي خرجت في ليبيا بعد ذلك حيث تمازج الخطاب الثقافي والإعلامي مع الخطاب السياسي في ليبيا.



الصادق النيهوم واجه انتقادات كثيرة.. فكيف كان يرد على تلك الانتقادات؟

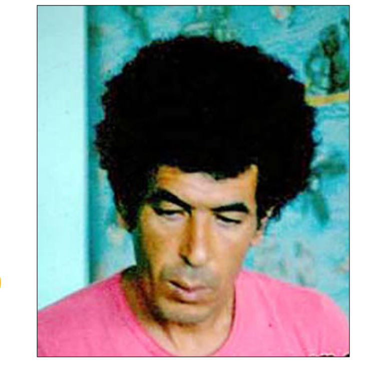
النيهوم كان محل انتقاد باستمرار لأنه تعرض لأشياء تسمى بـ»مسكوت عنها»، ففي المجتمع العربي عموما نجد قضايا تعتبرها الشعوب بأنها «تابوهات مخيفة» لا يجب الاقتراب منها، مثل مسألة الدين، وعلاقة الإنسان بربه، والإنسان بدينه ووطنه، والكثير من الأشياء التي تعتبرها الشعوب العربية خط أحمر لا يجب تجاوزه، ولا يجب أن يتم الاقتراب منها حتى الاقتراب، فهي جميعها تدخل في إطار «المسكوت عنها»، لكن الصادق النيهوم، تجاوز هذه الحدود، فهو كاتب يستطيع أن يدير دفة الحوار وكانت معاركه كلها رابحة، لأنه كان يتكأ على قاعدة صلبة، وهي ثقافته العالية واطلاعه على الكثير من الثقافات العربية والأوروبية أيضا، مما جعله يحمل رؤية



مغايرة، وكان يؤكد دائما أنه لا علاقة للعرب بالتخلف، بل بالعكس العرب مبدعين ومتقدمين أكثر من الغرب.

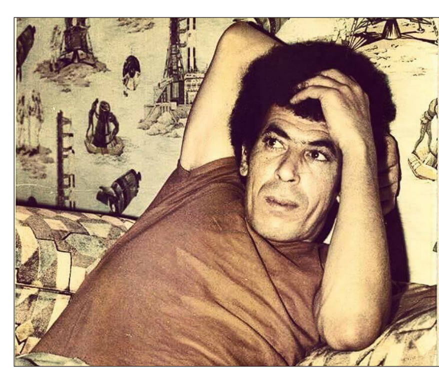
كان النيهوم متقنا للغات الميتة.. كيف أثر ذلك في كتاباته وقراءته للتراث؟

عندما يمتلك الكاتب أدوات عدة، تكون كلها بمثابة الأسلحة في معركته، والكاتب عادة يحمل رسالة ويحمل رؤية أو يكون لديه رؤية لما يحدث وتكون رؤيته تجسيد أو تخيل للواقع، لكن الصادق النيهوم كان خارج هذا الأسر فهو لم يكن مأسور بهذه الفرضية، فكان يتمرد من خلال أدبه والذي كان متميز جدا، وكان يمثل ثورة في عالم الثقافة، لدرجة أن يمكننا القول إنه أكثر أديب عربي تعرض للانتقاد والهجوم، وذلك لأن الآخرين لم يكونوا في مستوى مجارات هذا الطرح، فما كان يطرحه الصادق النيهوم كان يسبق تلك الفترة وبالتالي قدرة الآخرين من المثقفين أو النقاد في تلك الفترة التي كان بها النيهوم كانت أقل أو أدنى مستوى من هذه الرؤية، وبالتالي كانوا قاصرين على ما يرمي إليه أي قاصرين على رؤية الحقيقة، ومن هنا خلقت حالة الصدام بينهم وبين الصادق النيهوم.



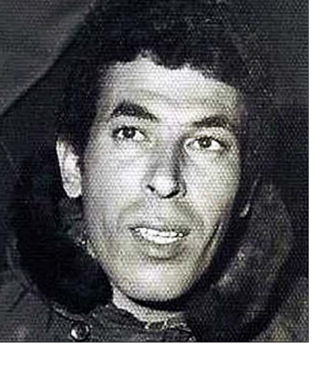
ماذا عن مشروع الصادق النيهوم الروائي؟

الصادق النيهوم كان يمثل ثورة في عالم الفكر، والثقافة، والأدب، والقصة، والرواية، وحتى ما يطرحه من رواية كانت تسبق ذلك العصر، بمعنى أن الصادق النيهوم قدم رؤية مختلفة جدا خصوصا فيما يتعلق بكتبه إسلام ضد الإسلام، والإسلام في الأسر، ومجموعة الكتب التي أثارت جدل كبير جدا، ولكن لابد وأن نشير إلى أن مسألة الابداع في ليبيا في السنوات التي سبقت 2011 كانت مسألة طبيعية جدا، وكان هناك إمكانية ووسائل تساهم في فتح آفاق الإبداع، وذلك لأن من كان يدير الأمور في ليبيا – وهنا نشير إلى القائد معمر القذافي- ومن كان يقوم حتى الثورة السياسية في ليبيا كان مبدع، وكانت له علاقة بالكتابة وبالأدب والثقافة، فالقذافي لم يكن مجرد رجل سياسي أو عسكري بل كان يحمل مشروع ثقافي ومشروع سياسي ومشروع اقتصادي، وبالتالي وجد الصادق النيهوم في هذه البيئة ما مكنه من تحقيق جزئية من طموحاته، فكان الصادق النيهوم آنذاك هو رسول بنغازي أو رسول ليبيا إلى العالم، وحمل رسالة إلى العالم بأننا شعب قادر على الإبداع عن طريق تجاوزه للأفق الضيقة التي وضع العرب تحديدا أنفسهم بها، فحين يكون الإنسان متمكن عميق الثقافة ويمتلك المفردات والأسلوب الذي يمكن أن يعبر به عن أفكاره ويطرحها يصبح المشروع حقيقي وقائم.



ماذا عن جدالات النيهوم الفكرية ورده على خصومه عبر المجلات والصحف؟

يمكنا القول بإن الصادق النيهوم كان فارسا، أو كان الفارس الذي عندما يدخل المعركة يكون انتصاره قوى، وخاصة في القضايا الجدلية، لماذا؟ لأن النيهوم لم يكن دخيل أو لم يكن يقدم فكر طرفي أو فكر صالونات بل كان يقدم فكر من الشارع ورؤية للناس وهو من الناس وإلى الناس، فحتى القضايا التي يمكن أن يفكر بها الإنسان بينه وبين نفسه تناولها النيهوم في كتاباته، ونحن الآن في عصرنا الحالي بدأنا في الاقتراب بعض الشيء من قضايا كانت تناولها النيهوم في السابق.



كان للنيهوم رسائل كثيرة.. فما هي رسالة الأقرب إليك.. وهل لديك رسالة تختلف معه فيها؟

من أكثر رسائل النيهوم التي أؤمن بها، عندما كان يقول «إن الإنسان إذا أراد أن يبدع فسيكون قادر على الإبداع» وأيضا «يجب ألا نغلق تفكيرنا على نمط أو سقف معين أو درجة معينة لأن الله خلق فينا عقل ومنحنا القدرة على التفكير والأشياء التي خلقها الله كاملة مكملة وتسعى إلى الكمال»... وبالنسبة للاختلاف مع أحد رسائله، فلا يوجد شيء، فأنا أتمنى أن أكون بما يرتقي أو بما يستطيع أن يستوعب ما يكتبه الصادق النيهوم، ولا اختلف معه بل بالعكس أن اعتز أنني من بلد أنجبت الصادق النيهوم وأنجبت مثل هؤلاء من كبار الأدباء والمثقفين.



كاريكاتير



محمد قجوم